الفصل الثانى

نسيب عريضة الشاعر

١ ــ غريب فى نيويورك

٢ ــ قلق وحيرة

٣ ــ الروح ، والجسد ، والموت

٤ ــ أم الحجار السود

٥ ــ على طريق إرم

٦ ــ احتضار أبى فراس

٧ ــ الشكل والأسلوب

غريب فى نيويورك

فى الفصل السابق حاولنا أن نقدم عرضاً سريعاً لحياة نسيب عريضة والأحداث التى ساعدت على تكوين شخصيته والتأثير فى كتاباته النثريه والشعرية منذ كان تلميذاً فى المرحلة الابتدائية فى مدينة « حمص » إلى أن أصبح رجلا مثقلا بأعباء الحياة مغلوباً على أمره بسبب الظروف المختلفة التى تعرض لها حتى يوم وفاته فى نيويورك ؛ تلك المدينة التى شهدته يصل إلى أرضها غريباً فى عام ١٩٠٥ ، ويغادرها غريباً فى عام ١٩٤٦ . فهل أمضى كل هذه السنوات غريباً فى نيوريوك ؟ هذا ما سنحاول إيجاده فى هذا الفصل مهتدين بكتاباته وأشعاره .

ومن النظرة الأولى إلى مجموعة أشعار نسيب ، أو حتى من قراءة إحدى قصائده القصيرة أو الطويلة ، يمكننا القول بسهولة أننا أمام روح معذبة حساسة ، إنسان غريب مستوحد . إن ديوانه الكبير « الأرواح الحائرة » ليعكس صورة كاملة لحياته المضطربة ونفسه المعذبة وأفكاره الهائمة فى القريب والبعيد .

إن « الأرواح الحائرة » بين مجموعة إنتاج أعضاء الرابطة القلمية هو الديوان الوحيد الذى ليس فيه بارقة أمل أو شبح ابتسامة أو لمحة سعادة . وتكفينا نظرة إلى عناوين القصائد لنصل إلى هذه النتيجة التى ذكرناها : اشرب وحيداً ، عد يا قلب ، النوم والمنية ، بين العواصف والأمانى ، طريق الحيرة ؛ وموضوعات أخرى تثير الشفقة والرثاء . وحتى فى قصيدته المسماة « فى جلسة طرب » لا نسمع سوى أنات الألم ونغمات الشكوى المقبضة :

غنّى المغنى فى سكون الدجى فقال لى صحبى أما تسمع ؟

نراك لا تحسو كؤوس الطلا ولا تنادى « آه » إذ تخشع
قلت : دعونى مطرقاً حائراً فليس لى فى لحوكم مطمع
مَنْ لى بأن أطرب والنفس قد أمست على أسماعها برقع
إذا سمعتم فأنا سامعٌ ما ليس يصبيكم ولا يمتع
أبعد من ضجة ألحانكم عاصف أنغام به أرتع
قرارها الحزن ودولابها كآبة ضاقت بها الأربُعُ[1]

وبالنسبة إلى نسيب فإن الألحان الجميلة ليست سوى ضجيج يؤلمه . وهو لا يستمتع إلا بترديد آهاته التى تنبع من أعماق قلبه . فتنفس بخروجها عن كآبته وحزنه العميق .

إنا لنجد نسيباً ، منذ أنشأ أول أبياته سنة ١٩١٢ . أى فى أول حياته الأدبية ، يعترف بهذه الروح الحائرة المتشائمة ، محاولا أن يوصّل إلى الغير هذه العواطف الشخصية من خلال الشعر . إنه يتحدث أولا عن « الشاعر » عن عمله وتأملاته بين الحب والطبيعة وهذه الدنيا الواسعة . ولكنه يقرر أنه ليس ذلك النوع من الشعراء . إنه يختلف عنهم ؛ هو شاعر الشك ، والتشاؤم العميق والحيرة والقلق . ويفسر ذلك بأسباب من عنده . وفى الأبيات التالية ، يبدو كما لو أنه يريدنا أن نعرف ما الذى يوحى له بالشعر ، وما الذى جعله ينظر إلى الحياة كشىء يجب علينا تحمله :

وأنا أحسب نفسى شاعراً جاش فى قلبى عزيف من وَتَرْ
وترٌ واه على ألحانه يسكر القلب ويفشى ما ستَرْ
ضاق ذرعاً بالأسى لكنّه ظلّ فى كتمانه حتى انفجرْ
فاسمعوا أناته تروى لكم رجع ما ردّده صوت الغيرْ

ثم يمضى فى تعداد تلك الظروف السيئة التى يعبر عنها فى شعره ، كلها حزينة تكشف عن الجانب المظلم من الحياة ، حيث لا يبدو شعاع من نور ولا لمحة من أمل . إنه يحكى لنا عن سوء العيش ، وظلم القدر ، وليالى القسوة والغربة .

---

(١) الأرواح الحائرة ص ٤٧ .

كأنه كان شخصاً منفياً فى محيط عدائى . لقد خدعه الناس ، وفقد الإيمان بالخير البشرى ، مما جعله يعتزل ويظل بعيداً حتى عن أقرب الأصدقاء . وعلى العموم ، إنه ليجد فى كل فكرة حزينة وفى كل صرخة موجعة موضوعاً يتحدث عنه ويعبر بواسطته عن مشاعره ، وأخيراً يقول :

باطلا ترجعون لحناً مفرحـاً قطّعت أطرب أوتارى العِـبَـرْ
فدعوا قلبى مع الباكين فى مأتم العيش على حال البشر[١]

بهذه النظرة الكئيبة وهذه الروح المتشائمة الممزقة الهائمة فى صحراء مظلمة ، نظم نسيب جميع أبياته وقصائده منذ البداية حتى حل به المرض سنة ١٩٤٢ . وما علينا سوى أن نتخيل تلك الأمور المحزنة التى جعلته يتأوه لما لا يقل عن ثلاثين عاماً ، حتى يتبين لنا أن الحياة أصبحت كئيبة بالنسبة له لدرجة أنه لا يستطيع أن يستخلص منها أية مسرة . ظل ينتظر اليوم الذى ترتفع فيه روحه إلى عالمها العلوى ، الذى مكثت فى شوق لمعرفته كل هذه المدة .

كانت تعذبه فكرة أن الإنسانية تعطى الأولوية لأمور المادة وتهمل كلية القيم الخلقية كما أن طريقة معاملة الناس له عمقت آلامه وملأت نفسه بعدم الثقة . فانكمش أكثر فأكثر داخل نفسه ، ولجأ إلى حياة التصوف والانفراد ولا شيء يحنو عليه سوى شعره وأفكاره المتعبة . وكثيراً ما نعثر على تعبيرات عن الوحدة ونغمات خفية حزينة فى شعره . ونلاحظ مثل هذا التحفظ والاعتزال عنده حتى فى جلسات الأنس والتسلية ، إنه لا يجد رفقاء يثق بهم ويستمتع بصداقتهم . ويعبر عن أفكاره بهذه الأبيات :

اشرب وحيداً أيهذا الفتى أو صُمْ عن اللذة فى الطاس

وعندما وجد من الصعب عليه رفض كأس الشراب ، عوّض عن ذلك بالشرب وحده ومع نفسه :

شربت وحدى نخب نفسى ولم يقلقنى هاتف وسواس

---

(١) الأرواح الحائرة ص ١٧ — ٢٠ .

وكان سُمّارى نجـوم الدجى وكانت الآمـال جلاسى
رأيتها تهتزّ سـكراً معى منشدة نغمـة إينـاس
اشرب وحيداً أيهـذا الفتى ولا تصُمْ عن لذة الكاس[1]

لم يكن غريباً على نسيب عريضة ، كغيره من الشعراء الرومانسيين ، أن يمتلك هذا الشعور بالوحدة والغربة ، والاختلاف عن سائر الناس ، إنه لا يمتنع عن الشرب مع الأصدقاء فحسب ، بل أيضاً لا يستمع إلى الأغانى والألحان التى تمنحهم السرور والابتهاج . إن الألحان التى يستمع إليها مختلفة عن ألحانهم . إنها تعكس الحزن والانقباض الذى لا تحتمله الدنيا .

كان مرة يقرأ أشعار بعض الشعراء الروس . وكان يتقن معرفة الروسية ، فعثر على شاعر[2] بائس مكتئب ، وجد فى شعره صدى لمشاعره وأفكاره ، فترجم إحدى مقطوعاته ودعاها الصمت وفيها يتحدث عن الوحدة والبعد عن الناس ، الذين لا يفهمون عواطفه أو يستجيبون لمشاعره :

عش داخل النفس والزمها كصومعة . . .

وفى قصيدته المسماة « الصديق » نجد صورة واضحة للصفات التى يحب نسيب أن توجد فى صديقه ؛ يجب أن يكون صريحاً ، شجاعاً ، متسامحاً ، ذا نفس طاهرة ونظرة عميقة فاهمة للحياة . ويذكر نفسه فى آخر القصيدة بأنه لا يوجد أصدقاء حقيقيون فى أوقات الحاجة والمتاعب . ويأتى إلى النتيجة وهى أنه من الأفضل له أن يظل وحيداً ، يواجه الأحداث السيئة التى هى من نصيب الإنسان على هذه الأرض :

أعطنى فى الرخاء خلاً يقضّى زمن اللهو والمسرّات عندى
وإذا ما مضى الرخاء فدعنى لقراع الخطوب فى العيش وحدى[3]

---

(١) الأرواح الحائرة ص ٢١ – ٢٣ .
(٢) هو الشاعر فيدور تيوتشيف .
(٣) الأرواح ص ٢٦ .

إنه يكرر نفس الفكرة الأولى ويصرخ فى صديقه عندما تطفل على وحدته :

رُحْ صاحبي رُحْ أخي ، هيهات تفهمني   دعني وشأني ، فما أدراك ماشاني؟(١)

يُخيّل إلى نسيب أن نفسه لغز مبهم لا يستطيع أحد حله ، أو فك طلاسمه فليبق إذن وحيداً فى قوقعته ، يحاول أن يصل إلى الإنسان فى داخله ؛ ولكن ، يبدو أنه هو نفسه قد أخفق فى الوصول إلى هذه النتيجة ، الأمر الذى أزعجه كثيراً وملأ نفسه بالألم والمرارة . إنه يصرخ من أعماق قلبه :

أنا فى الحضيضْ
وأنا مريضْ
أفلا يدٌ تمتدّ نحوى بالدوا
وتبثّ فى جسمي ملامسها القوى
وتقلّني من هوّتي نحو الذرى
فأسير مستنداً إليها فى الورى ؟(٢)

ويمضى فى صراخه ونواحه محاولا جهده سائلا أن يعرف ، ولكنه يواجه بالحقيقة المرة التى عرفها وآمن بها : الناس غير مبالين . لا أحد منهم يهمه أن يستمع إلى شكواه الأليمة اليائسة ؛ خاصة أن الآخرين مثله : فى أعمق أعماق البؤس :

ما من مجيبْ
ما من حبيبْ

سِرّ يا شقيّ كفاك تشكو . ما دهاكْ ؟
ألعلّ لا شاكٍ من البلوى سواك ؟
كم ذا تفتّش عن مواس أو معين ؟
هيهات . إن الناس مثلك أجمعين(٣)

---

(١) الأرواح ص ٥١ .
(٢) الأرواح ص ٧٢ .
(٣) الأرواح ص ٧٢ – ٧٣ .

كان نسيب عريضة شخصاً ذا مثاليات عالية ، وكان يؤلمه أن يرى أخلاق الناس فى تأخر مستمر ؛ وأدهشه جشعهم وتكالبهم على جمع المال ، مما كون فى نفسه ثورة ضد الحياة المادية المحيطة به ، ثورة ضد مبادئ الناس ومعتقداتهم ، التى كانت بعيدة كل البعد عن مبادئ أهله وبنى قومه بعيدة عن كرمهم وتسامحهم ونبل قلوبهم ؛ تلك المبادئ التى لم يدنسها هذا التكالب على المال . وفى قصيدته « على الأطلال » ينوح على تلك الصفات المفقودة ، ويبكى الشهامة والإخلاص ، والنبل والشجاعة ، وغيرها من الميزات التى لم تعد موجودة فى هذا العصر وفى العالم الجديد . هنا نجد الناس منهمكين فى شئون العصر المادية والصناعية :

كم ؟ أصبحت عند الورى ... بدء الحديث وفصله
كم جاهل حاز الغنى ... والمال يغفر جهله
والمال يعلى فرعه ... والمال يستر فعله

ثم يسأل نسيب فى تعجب :

أكذا تغيّرت العصور ... وفاتنا العصر الأغرّ ؟
أكذا على الأطلال نبحث ... عن بقايا ما اندثر ؟
أكذا عفا الصرح القديم ... أما بقى منه أثرْ ؟

ليس غريباً على شاعر يكره المادة إلى هذا الحد ويمقت الطمع والأنانية أن يعطى بسخاء وتطوع كل صفة روحية يمتلكها : الحب ، والعلم ، والشرف وغيرها من صفات الروح . ثم يمضى مخاطباً صديقه فى مقطوعة سماها هاك :

وإذا أنت لم ترد ... كل ماقد ذكرته
فاعذر الفقر ليس لى ... غير ما قد عرضته
واطلب المال من غنىٍّ ... فإنى عدمته
ليته يفهم الغنى ... مثلما قد فهمته
كم غنىٍّ رحمته ... وفقيرٍ حسدته

---

(١) الأرواح ص ٧٤ – ٧٥ .

(٢) الأرواح ص ١٦٥ .

وبالرجوع إلى أعمال بقية أعضاء الرابطة القلمية ، نصل إلى القول : إن كثيرين منهم شاركوا نسبياً هذا الشعور بالوحدة والغربة . فجبران نفسه مثلا اعتبر نفسه مختلفاً تماماً عن الآخرين : « دولاباً يدور يمنة بين دواليب تدور يساراً »(١) .

فى كتابه الثائر « العواصف » يرسم جبران خطًّا رفيعاً حاسما يفصل بين المختارين أو الممتازين ، الأنبياء والفنانين السماويين ، وبين رجال القوة ؛ الطغاة والراكضين وراء الملذات . ويرى جبران أن هذا الحد لا يمكن تخطيه وهو موجود خلال عصور التاريخ ؛ فكل الفضائل ، وأبرزها الحزن والتمزق الروحى ، يملكها الممتازون بسخاء ، بينما كل الرذائل ، مثل القسوة والشهوة وخوض الملذات والجهل المريح تُعطى للفئة المقابلة . الحزن هو « ظل إله » لا يعيش بين القلوب الشريرة ، ولا يقربها . والدموع كالزيت الشافى ، فالإنسان الذى يُغسل بها مرة يظل نقياً إلى الأبد . والممتازون يبكون لأنهم مبتعدون عن الله بواسطة أجسادهم ، بينما يضحك الآخرون لأن أجسادهم مستريحة على هذه الأرض . وغير جبران ، نجد عضواً آخر فى الرابطة هو : إيليا أبوماضى يملك نفس هذه الأفكار فهو أيضاً يثور ضد النظرة السطحية المادية إلى الحياة فى العالم الجديد ، ويتحدث إلى نفسه هكذا :

يا نفس ، لو كنتِ ترين الشئون ... كما يراهـا سائـر النـاسِ
لما رمانى بعضهم بالجنـون ... ولم أجدْ فى الناس من باسِ

ويقرر الحقيقة لنفسه قائلا :

عارضتُ مقياس الورى أجمعين ... فكيف يرضون بمقياسى ؟ (٢)

وفى الأدب العربى عموماً ، نلتقى بعديد من الشخصيات المعروفة ، الذين كانوا يمتلكون نفس المشاعر ، ويعيشون هذه التجربة من الإحساس بالانفراد

---

(١) جبران : العواصف ص ١٠٦ ، من المجموعة الكاملة ج ٣ .
(٢) أبو ماضى : الخمائل ، ص ٤٠ .

والغربة ، حتى وهم بين قومهم وأصدقائهم . من هؤلاء أبو العلاء المعرى . الذى أحس غربته بعمق وأطلق على نفسه اسم « رهين المحبسين » . وابن الرومى كان هو الآخر لديه شعور الرجل المتأمل بين أناس لا يهتمون بغير المال والممتلكات :

إنا نجد ناقدة معاصرة تكتب عن ابن الرومى : « كان بين بقية الشعراء العرب كطائر يطير وسط سرب غريب عنه »[١] .

والمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد يقدم لنا دراسة مستفيضة ومشرقة للغاية عن ابن الرومى فى كتابه عنه . وبقراءة تحليل العقاد لنفسية ابن الرومى نلحظ وجوهاً عديدة للشبه بين الشاعر العباسى ونسيب عريضة[٢] .

وفى الأدب العربى الحديث ، فى غير العالم الجديد أيضاً ، نلتقى بشعراء وكتاب اتخذوا هذه النظرة المتشائمة إلى الحياة ، والتزموا أنفسهم دائماً ، يتأملون ويفكرون فى مختلف المسائل الروحية فى هذه الحياة ، ولكنهم قليلا ما يصلون إلى جواب ، ففى مصر نجد إبراهيم عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى ، والأخير يشبه عريضة كثيراً فى حيرته وتأمله النفس وعجائبها . ولو أن جماعة أبولو عاشت مدة أطول فى مصر لكان لها نفس الآراء فى الحياة والفكر كما كان للرابطة القلمية ، وكان عبد الرحمن شكرى أحد زعمائها ، وأبو القاسم الشابى التونسى من أعضائها ومؤيديها . ومعروف أن مؤسس تلك الجماعة أحمد زكى أبو شادى قد أصبح مهاجراً إلى الولايات المتحدة هو الآخر ومعروف أن شعارهم كان كمايلى :

يا شاعر الفردوس إن الشعر وجدان[٣] .

وتحضرنى هنا سطور من مقدمة ديوان نسيب عريضة « الأرواح الحائرة » كتبها أحد أصدقائه ، وهو حبيب إبراهيم كاتبه ، وهو ناقد معروف بين المهاجرين ، فبعد أن يعبر عن تشوقه للزمن الذى تتحد فيه الثقافات ويأخذ الأدب العالمى

---

(١) سيليا جردى : مجلة الأديب فبراير ١٩٥٦ ، بيروت .
(٢) عباس العقاد : ابن الرومى ، حياته من شعره ص ١٧٠ .
(٣) تأسست جماعة أبولو سنة ١٩٣٢ فى القاهرة والإسكندرية .

مكانه فى التاريخ نجده يقول : « أما ونحن لم نقترب بعد حتى من عتبة ذلك العصر الذهبى الذى نحلم به الآن ، فما أحرانا بأن ندعو عصرنا الحالى الذى نعيش فيه عصر الحسرة والحيرة . فليس اعتباطاً يدعو نسيب عريضة ديوانه " الأرواح الحائرة " وليس بلا مسوغ تغلب سورة القنوط واليأس على قصائد معظم شعرائنا العرب فى هذا الزمان ، هم أرواح حائرة يخاطبون أرواحاً تائهة — بلابل صداحة فى أقفاص ذهبية ضيقة ، يغردون وليس مَنْ يسمعهم إلا نفر قليل لم تلههم تجارة أو بيع عن التمتع بالثروة الروحية التى تفوق جميع لآلئ الأرض وجواهرها »(١) .

إن الشعراء العرب من المهاجرين إلى العالم الجديد فى أول هذا القرن يشبهون إلى حد كبير ، الشعراء الرومانسيين فى القرن الماضى فى أوربا ، من ناحية إعجابهم بالبساطة وعدم الكلفة ؛ وفى نظرتهم إلى الإنسان ، وفى حماستهم بالنسبة لجمال الطبيعة ، وفى التفاتهم بصورة واضحة نحو مشاعرهم الشخصية وعواطفهم .

أما وقد امتلأوا بالروح الرومانسية ، ليس غريباً أن نجدهم يهتزون بعمق ويتحيرون أمام التغيرات التى أدخلها عصر العلم ، والتى أحدثت ثورة فى طريقة الحياة عموماً ، وبالتالى أدخلت تغييرات ظاهرة فى عالم الأفكار .

ومن ناحية أخرى ، لست ميالة إلى الموافقة على رأى القائلين بأن الشعراء العرب فى أمريكا لم يكونوا على اتصال كاف بالأدب الأوربى والحركات الأدبية الغربية . فمن المعروف أن جبران كان الرجل الأول والشخصية القائدة فى الرابطة القلمية . وقد ذكرنا من قبل أن فكرة إيجاد الرابطة خطرت أولاً لنسيب عريضة ، ولكنا يجب أن نسلّم أن جبران كان أكثر نشاطاً وذا علاقات عديدة طيبة مع بعض الشعراء والكتاب الأمريكيين ، وفى عام ١٩١٨ كان يعد واحداً من المحررين والمديرين للمجلة الأدبية الأمريكية :

---

(١) الأرواح الحائرة ص ١ — ٢ .

« الفنون السبعة »[١] The Seven Arts وهذه المجلة لم تعمر طويلا ، ولكنها منحت قدراً كبيراً من الثقة بالنفس والشجاعة الأدبية لجبران الذى استمر يكتب بالإنجليزية . وبهذه الطريقة تعرف على جمعية الشعر الأمريكية وأصبح عضواً فيها ، وسرعان ما أصبح معروفاً فى المجتمعات الأدبية والفنية والاجتماعية فى أمريكا »[٢].

ومن هنا ، فليس بعيداً عن العقل أن يكون جبران وحده على الأقل — قد قرأ كثيراً فى الأدب الأمريكى والأدب الإنجليزى أيضاً . كما كان يستمع إلى الأحاديث والآراء حول مختلف الحركات الأدبية المعاصرة أو الأدباء المعاصرين . فلم لا يتبنى ما يعجبه أكثر من غيره ويدخل بعض الاتجاهات الغربية إلى أعمال وأهداف الرابطة ؟ ولم لا يتحدث عن كل هذه الأشياء مع زملائه وأصدقائه ؟ كما أن نعيمة نفسه ، فى اعتقادى ، كان على معرفة تامة بالتغييرات التى تأخذ اها فى الحياة والفكر الغربيين ، وكان حراً فى تبنى ما يعجبه منها .

كان نسيب أقل أعضاء الرابطة قراءة للأدب الأمريكى أو الأدب الإنجليزى ، فقد كان يقضى كل أوقاته يقرأ بالعربية فى القسم العربى من مكتبة نيويورك العمومية . ومع هذا فلا أرى ما ينفى أنه كان متأثراً ببعض الشخصيات ممن شابهت حياتهم حياته والتقت آراؤهم بآرائه .

فى الأدب الإنجليزى مثلا كان هناك الشاعر الرقيق الحساس أ.أ هوسمان A. E. Housman وقد عاش فى آخر العصر الفكتورى . لقد أوحى له مزاجه الحزين العميق بكل ما كتب من أبيات رقيقة حزينة . وكان هناك الشاعر والكاتب المتشائم توماس هاردى Thomas Hardy الذى رأى الجانب المظلم واليائس من الحياة . وأيضاً ماثيو آرنولد Matthew Arnold الذى عبر فى كتاباته عن الشك والحزن والخيبة التى ميزت العصر .

---

(١) نعيمه : جبران ص ٢٨٤ .

(٢) Barbara Young : This man from Lebanon

يُرجع الناقد البريطانى الدكتور د. ديتشز D. Daiches وجود هذه الحالة فى الأدب الإنجليزى فى القرن التاسع عشر ، إلى الثورة الكامنة ضد القيم والتقاليد التى فرضها العصر الفكتورى ، ولكنه يقرر أن هؤلاء الشعراء لو أنهم عارضوا القيم الفكتورية مبدعين قيما مضادة حازمة ، أو أنهم لجأوا إلى الناحية اللغوية ، إذن لحققوا ثورة فنية . ولكنهم فى الواقع شعراء تقليديون أرادوا أن يُتركوا وحدهم مع عواطفهم ومشاعرهم الخاصة — وإن المميزات الواضحة لأعمالهم تنبع من هذه الوحدة ، وليس من أى اتجاه ثورى . ومع هذا فإن اتجاههم كان مختلفاً عن اتجاه من سبقوهم . إنهم يرفضون الحياة المعاصرة(١).

وفى حديثـــه عن الشاعر الإنجليزى تنيسون Tennyson والناقد ماثيو آرنولد ، يقول الدكتور ديتشز : « من الآن فصاعداً تصبح صفات الرفض والإنكار والهروب هى الاتجاهات العامة بين الشعراء : الهرب إلى الكلمات ، ومذهب عدم نفعية الفن ، والتنكر بأسلوب الصوفية ، والنسك ، أو الفن الخصوصى ، الرفض بأسلوب التشاؤم أو الثورة(٢) .

وعندما يتحدث الناقد ديتشز عن الشاعر أ. أ. هوسمان فإنه يأتى بنص كلمات الشاعر :

« كيف يسير نظام العالم ولماذا خلق ؟ لست أدرى . ولكنى أدرى أنه ليس سريراً من ريش لراحة الكسالى :

How the world is managed and why it was created I cannot tell; but it is no feather - bed for the repose of sluggards."

ثم يكمل الناقد كلامه فيقول : « إن هوسمان كهاردى غير سعيد ومتشائم والسبب هو — وإن لم يعرفه كلاهما — أن كلامنهما رأى القيم الفكتورية تتحطم أو قد تحطمت فعلا . ويشخص هوسمان عواطفه المتشائمة فى الشخصية

---

(١) D. Daiches : Poetry and The World p. 15

(٢) D. Daiches : Poetry and the New world p. 8

الميلودرامية ؛ شخصية فتى شروبشير The Shropshire Lad »[1] .

ظهر ديوان هوسمان المسمى « فتى شروبشير » The Shropshire Lad فى لندن سنة ١٨٩٦ . وبالتدريج أصبح معروفاً فى الولايات المتحدة الأمريكية . وما إن حل عام ١٩١٢ حتى أصبح مشهوراً إلى درجة أن الكثيرين من القراء الأمريكيين اعتبروه أهم المجموعات الشعرية التى ظهرت فى الخمسين سنة الأخيرة . ويكفى أن نعرف أن هذا الديوان ، مابين عامى ١٨٩٦ و ١٩٤٦ قد طبع ثلاثاً وثمانين مرة . وكتب الكثيرون من النقاد عنه وظهرت أعمدة الصحف تقرظ قصائده ، التى أخذ الناس يحفظونها عن ظهر قلب .

وبالنظر إلى هذه الحقائق المذكورة لسنا نستبعد أن يكون نسيب عريضة واحداً ممن قرءوا هذا الديوان وأعجبوا بالشعر والشاعر ، إذ نلحظ الكثير من وجوه الشبه بينه وبين هوسمان . كلاهما كان متشائماً ، متحيراً وخائب الأمل . وكلاهما كان يسأل الناس أن يتركوه وحده ويعطوه الفرصة للتأمل والتحليل . إن هوسمان قد ثار ضد القوانين الإلهية وضد التشريعات التى يضعها البشر :

Let god and man decree
Laws for themselves and not for me;
And if my ways are not as theirs,
Let them mind their own affairs.
Their deeds I judge and much condemn,
Yet when did I make laws for them?
Please yourselves, say I, and they
Need only look the other way. (2)

دع الله والناس يضعون القوانين لأنفسهم وليس لى .
وإذا لم تكن سبلى كسبلهم ، فليهتموا بشئونهم الخاصة وليتركونى وحدى .

---

(١) D. Daiches : Name and rature of Poetry p. 19

(٢) A.E. Honsman : Last Poems XII

إنى أحكم على أعمالهم ، وكثيراً ما ألومهم عليها ، ولكن ، متى ترانى صنعت لهم القوانين ؟

إنى أقول لهم : متّعوا أنفسكم .. وما عليهم إلا أن يلتفتوا إلى الناحية الأخرى .

لم يكن نسيب ثائراً بهذه الدرجة التى كان بها هوسمان ، ولكنه مثل رفض تدخل الناس فى شئونه ، حتى أقرب أصدقائه ، وكان يعتقد أنه لا يوجد شخص يفهم روحه الحساسة لجأ إلى قلبه ، ينشد السلوى والعزاء ، متوقعاً منه أن يخفى مشاعره وبؤسه ولا يشكو من شىء ، إنها نظرة قلقة غير مبالية تجاه الحياة :

فاسكت تصنها ولاتبذل سرائرها واسمع صدى لحنها واسكر بهطرباً (١)

أما هوسمان فإنه فى آخر قصيدته المذكورة فى الصفحة السابقة قد استسلم وآمن بالحقيقة التى أعرب عنها قائلا :

And since, my soul, we cannot fly
To Saturn nor to Mercury.
Keep we must, if keep we can,
These foreign laws of God and man. (2)

ومادمنا ، يانفسى ، لا نستطيع التحليق نحو زحل أو عطارد

فما علينا إلا أن نحافظ ، قدر استطاعتنا على قوانين الله والإنسان التى هى غريبة علينا .

وكثيراً ما كان هوسمان يتحدث إلى نفسه مثل عريضة وبقية أعضاء الرابطة القلمية ، ولكى يؤكد أهمية هذه النفس يقول هوسمان :

And if your hand or foot offend you
Cut it off, Lad, and be whole.
But play the man, stard up and end you
When your sickness is your soul (3)

---

(١) الأرواح الحائرة ص ٢٥ .
(٢) A.E. Housman : Last Poems XII
(٣) A.E. Housman : A Shropshire Lad XLV

وإذا نالك الأذى من يدك أومن قدمك ، اقطعها وعِشْ صحيحاً .
ولكنك كرجل يُقضى عليك إذا كان المرض فى نفسك أو فى روحك ؟

ولكن بينما يحتقر هوسمان « النفس » المريضة فإن نسيباً يجاهد لكى يجد لها علاجاً :

أنفسى ، ألم تبصرى فى الحياة ... سوى الليل واليأس والمنكرات ؟
فهلاّ نظرت إلى المفرحات ... وطرت إلى الروض والغانيات

. . .

ذممتِ الحيـــاة ولم تعرفيهـــا ... فهلا تناديت ، ما أنت فيها
سوى زائره . .[1]

---

(١) الأرواح الحائرة ص ١٠٦ .

٢

قلقٌ وحيرة

لم يكن نسيب عريضة هو الثائر الوحيد ضد تلك الحياة المادية الصناعية فى أمريكا ، فقد كان يسنده فى ذلك كل أعضاء الرابطة القلمية . وهذه النفس المتمردة قادت معظم الشعراء إلى الشك فى كل شىء ؛ إلى جواب « لست أدرى » الذى ردوا به على كل سؤال تسأله نفوسهم . ربما كان هذا أوضح ما يكون فى شعر إيليا أبى ماضى . ولكن بالنسبة لنسيب ، اتخذت هـــذه المسألة اتجاهاً آخر ، فكانت النتيجة اليأس المطلق ، والوحـــدة القاسية ، والزهد ، وعدم المبالاة بالكون وما فيه ، فكل الأشياء بالنسبة إليه مظاهر خادعة وملذات جوفاء :

لما رأيت العيش لا يشـ ـفى ولا يـــروى أوامى
والناس يزحم بعضهم بعضاً ، عدلتُ عن الزحام
المال ما يبغون لـــكن لست أقنع بالحطام
عجباً ، أيطمع بالغنى مَنْ ليس يطمع بالدوام؟[1]

ويكرر الفكرة التى فى البيت الأخير فى قصيدته المسماة « لست أدرى » :

ماذا يفيد المال مَنْ يُطوى غداً فى قاع قبر؟[2]

فى الواقع ، أن حيرة نسيب قد بدأت معه منذ وقت مبكر ، ويمكننا القول إنها كانت مغروسة فى داخل نفسه منذ الطفولة ، ولنذكر تأملاته الأولى وأسئلته البريئة لشجرة الأرز فى لبنان ؛ لماذا تقف هناك فى أعلى الجبل ؟ منذ متى كانت موجودة ، وإلى متى ستظل هناك ؟ .

---

(١) الأرواح الحائرة ص ٢٢٦ .
(٢) الأرواح الحائرة ص ٢٢٨ .

الوحدة والحساسية الشديدة والآراء الخلقية العالية ، تكوّن كلها جزءاً من الصفات التي وصفها إبراهيم حبيب كاتبه — فى مقدمته لديوان الأرواح الحائرة — بأنها الحيرة « الصغرى » بالنسبة لنسيب ، وفى شعر نسيب كثير من هذه الحيرة والشعور بالخيبة الذى سببته الأحداث السيئة ومآسى الحياة . وهنا نجد ظروف الزمان والمكان والبيئة هى بعض الأسباب لمشاعر نسيب الشخصية .

تلك هى الحيرة الصغرى والأقل تأثيراً التى انعكست من نفس نسيب على شعره . أما الحيرة الكبرى فتلقى ظلها على كل صفحات ديوانه ، وتعكس الإحساسات الداخلية لنفسه المعذبة : « هى حيرة كونية تشمل الزمان والمكان برمتيهما ، هى سَوْرة روح أزلية تغلى فى مرجل ملؤه السموات والأرض ، سمعنا صدى زفيرها وأنينها جيلا بعد جيل من أفواه شعراء ملهمين فأنطقت أيوب وصاحب سفر الجامعة ولوكريشيوس والمعرى والخيامى »[١] .

يقدم مؤلفا كتاب « الشعر العربى فى المهجر » تحليلا طريفاً لحالة نسيب الشاعر عندما يقابل مزاجاً خاصًّا أو أى نوع من المؤثرات ، وكيف سيعالج الحالة وينتج بسببها شعراً :

« اعطِ نسيباً شرارة من الانفعال ، ثم اتركه يعالجها بنفسه ، فإنك تجده واقفاً أمامها كالطفل الذى يرى شهاباً يسقط من السماء لأول مرة ، لا وقفة القديس الذى يخيل إليك أن بينه وبين النار سرًّا مفهوماً أو أنه على صلة بروحها المتمردة . أما نسيب ، فليس بينه وبين مايراه صلة من التجاوب المباشر ، إنه دائماً ناظر مشدوه ، يرى العجب العجاب ، فيما لا يراه أحد عجيباً ، ونجده أمام كل موضوع متعرياً على حقيقته ، حقيقة "المسافر" ، الذى تحدث الانطباعات الأولى فى نفسه أثراً عميقاً ، فهو يسأل ، ويسأل ، ولكنه لا يجد جواباً شافياً مقنعاً » .

---

(١) مقدمة الأرواح الحائرة ص ٢ .

إن علامة استفهام كبرى تغلّف شعر نسيب ، تنمّ عن حيرته . ومنذ اللحظة التى وصل فيها إلى نيويورك وخلال كل السنوات التالية ، نجده يواجه الحياة ، أولا كسائل يستفسر عن كل شىء — رجل يبحث عن الحقيقة ، ليروى روحه العطشى الماضية فى البحث والتساؤل — ثم كرجل مشدوه لم يجد الجواب بعد ، ثم كرجل مستوحد ، أساء الجميع فهمه ، ثم كناسك يرفض المسرات والمتع الظاهرية ، وأخيراً كصوفى لم يربح شيئاً من الحياة الخارجية فانكمش فى حياة داخلية تخصه شخصياً . وهنا ينظر إلى مختلف مظاهر الحياة المحيطة به ويرى أن كل شىء فى اضطراب ، وتناقض مع آرائه الشخصية فى العدل والتوازن العالمى ؛ هنا قطعة أرض قد أغرقها السيل وهناك قطعة أخرى تحرقها الحرارة ! هنا رجل غنى يشكو التخمة بينما الرجل الفقير يصرخ من الجوع ! فى الكوخ يولد طفل كسيح فقير ، وغيره يأتى إلى الحياة سليما معافى يحيطه الغنى والرعاية ! والسؤال الوحيد أمام مثل هذه التناقضات والعجائب الطبيعية التى لا تنتهى هو : لماذا ؟

لماذا تهبّ الرياح على ... شواهق ليست بها حافله
وتحرم من بردها مهمهاً ... به أوشكت تهلك القافله؟
لماذا السفينة تطلب ريحا ... ومن تحتها أبحر طائله
وفى القفر عطشى يريدون ماء ... وريح السموم بهم نازله ؟
لماذا نحس؟ لماذا نحب؟ ... لماذا نعيش بلا طائله ؟
لماذا التناسل ، والنسل ندرى ... بأن الحياة له قاتله ؟

وبعد سؤاله عن كل هذه الأشياء وغيرها ، يأتى نسيب إلى النتيجة التالية :

لعمرى وعمرك هذى أمـــور ... تحيّر ذا حجّة عادله
ومَنْ راح يطلب تفسيرها ... سيضنك قوته العاقله
فصمتاً أيا مَنْ يلوم الزمان ... ويشكو أفانينه الهائله
فإن الحياة لأقصر من أن ... نحلّ بها عقدة شاغله[1]

(١) الأرواح ص ٤٤ .

وصل نسيب إلى تلك النظرية الأخيرة من التصالح مع نفسه والهدوء والرضى فى عام ١٩١٥ حسب ما هو مذكور فى ديوانه . والسؤال الآن هو : هل استطاع نسيب أن يصل حقاً إلى تلك الخطوة من السعادة الروحية الحقة ، والفكر الذى لا يعكر صفوه شك ؟ أعتقد أنه لم يستطع ذلك أبداً ، إذ نجده فى عام ١٩٢٦ يتحدث عن قلمه الذى يشكو كثيراً من الحزن والألم كما لوكان قد شرب من خمر الأسى ، ثم يقول :

ما الحبر ما تنفثه ناقماً ذاك سويداء الحشايا قلم ! (١)

وقبل ذلك التاريخ فى عام ١٩٢٠ نجده يتحدث إلى نفسه ؛ يلومها لأنها مستمرة فى الشكوى والتأوه :

يا نفس مالك والأنين تتألمين وتؤلمين
عذبت قلبي بالحنين وكتمته ماتقصدين ؟

قد نام أرباب الغرام وتدثروا لُحُف السلام
وأبيتِ يا نفسُ المنام أفأنت وحدك تشعرين ؟ (٢)

فى الواقع أن نسيباً لم يكن الوحيد الذى يتحدث إلى نفسه ، فقد كانت هذه ظاهرة عامة عند بقية شعراء الرابطة . كل واحد منهم لديه — على الأقل — قصيدة يخاطب بها نفسه أو يشخّص هذا المخلوق الروحى ، معطياً إياه أهمية ظاهرة تدل على مدى تقديرهم له واحتفالهم به .

نجد نسيب عريضة ، فى قصيدته « على الطريق » يتحدث إلى نفسه مرة أخرى ويسألها :

لماذا وقفت بخوف وحيره
أيا نفس ، عند الطريق العسيره ؟
ألا امشى ، فإن الحياة قصيره
ألا امشى .

---

(١) الأرواح ص ٢٠١ .
(٢) الأرواح ص ٦٠ .

ويحثها على السير دون توقف ، ولكنها كالمشلولة لا تستطيع الحركة ، فكان عليه أن يغريها بالمشى إغراء بأن يصف لها المراحل الروحة الجميلة التى ستبلغها معه لو أنها أطاعت وسارت قدماً :

ألا امشى ، وبعد الجهاد الحقيقى
سنسبق آمالنا فى الطريق
ونجنى الأشعة قبل الشروق ...
ألا امشى [١] .

ومع هذا ، يبدو أن نفس نسيب لم تطعه بل وقفت فى حيرة انبهار دون أن تتحرك من جديد . وهذا لا يسر نسيباً فإنه يكره هذه الحالة من القلق والتردد ويريد أن يستمر فى التقدم حتى يصل إلى هدفه .

« الحيرة مأساة ، لأنها حالة نفسية سلبية . فالحائر فى أمر كالعالق بين الأرض والسماء يتوقع كل لحظة أن يهبط إلى الحضيض فيطير شظايا . ومن طبيعة النفس أن تبحث دائماً عن ممسك تتمسك به ، أو مستند تستند إليه أو شىء ثابت تقف عليه ، فالحيرة : وإن تكن محطة من محطات النفس فى مسيرها الأرضى ، ليست سوى مطهر تمر به ، فإما تهلك وإما تنجو . وقد هلكت فى ذلك المطهر نفوس كثيرة ، ونجت نفوس . ونسيب عريضة من الذين خرجوا من مطهر الحيرة ليكتشفوا آفاقاً أجمل وأبعد من آفاق الحيرة الضيقة » [٢] .

هذا المدى الجديد للرؤية الذى اكتشفه نسيب إنما يخص عالم الروح والنفس . لقد مال ببصره عن ثانويات الحياة إلى أولياتها ، وعن مرئياتها إلى ما وراء مرئياتها . وقد قال فيما بعد ، كما لو كان يؤنب نفسه على حالتها الأولى :

لو حدق المرء فى البرايا لشام ما لا ترى العيون
ما حولنا عالم خفى تدركه الروح فى السكون

---

(١) الأرواح ص ٦٠ – ٦٢ .
(٢) نعيمه : الغربال ط . دار المعارف ص ١١٣ .

كم مبصر لا يرى وأعمى يرى ويدرى الذى يكون
يا ويح من لا يرون شيئاً إلا إذا فتحوا الجفون[١]

إن نفس نسيب لم تصل إلى هذه المرحلة الميتافيزيقية ، من رؤية غير المنظور ومعرفة غير المعلوم ، بصمت وهدوء ، بل لقد مر مع نفسه بمرات صعبة ووقف معها فى مواقف مهجورة . لقد شربت روحه من قبل كؤوساً مرة من الوحدة والشك وخيبة الأمل ، وقد سمعناه يصرخ شاكياً من الوحدة والغربة بنغمة تذكر بعض النقاد بأغانى المتسولين وأبيات المتضرعين ، خاصة فى مثل قوله :

دربى بعيد
وأنا وحيد
أفلا رفيق أو دليل فى الطريق ؟
أفلا سلاح أو دعاء من صديق ؟
وا رحمتاه لمن يسير بلا وطاب
بين القفار وقد تعلل بالسراب[٢]

ولكن ، لم يجب أحد ، ولم يشفق أحد ، فكان عليه أن يهدّئ نفسه ويخبرها أنها ليست الوحيدة المحرومة من الصداقة ، فكل الناس مثلها فى الأسى والشكوى .

دائماً ، نحس أن هناك صراعاً بين نفس نسيب الداخلية ، وجسمه الخارجى ، وهذا شىء طبيعى ، حيث إن المتصوفين يتحدثون عادة عن هذين

---

(١) هذا يذكرنا بكلمات الشاعر الإنجليزى المعروف وليم بليك (W. Blake)

A spirit or a vision is not a cloudy vapour or a nothing, and he who does not imagine in stronger and better lineaments and in stronger and better light than his perishing and mortal eye can see, does not imagine at all." (Blake, Poet and mystic p. 24)

« الروح أو الرؤيا ليست بخاراً من الغيوم الضائعة ولا هى لا شىء . والمرء الذى لا يرى فى الملامح الأحسن والأقوى أو النور الأفضل والأوضح ، أكثر مما تراه عينه المادية الزائلة ، فإنه لا يستطيع التخيل مطلقاً » .

(٢) الأرواح ص ٧٢ — ٧٣ .

العنصرين ويفرقون بينهما . ولكنها لم تكن حالة سارة بالنسبة لنسيب ؛فكثيراً ما كان يكره هذه الحرب الدائرة بين روحه السماوية وجسده الأرضى ؛ بين كيانه الداخلى وذلك الكيان الخارجى ، وربما يكون غريباً أن نجده يشفق على جسده ويرأف به ، إنه يرجو نفسه ألا تكون قاسية إلى هذا الحد وأن ترحم جسمه الضعيف الذى يوشك أن يتضعضع :

أقلى النزاع وكفى الصراعا فقد كاد جسمى أن يتداعى

. . .

أعيرى الحياة التفاتاً قليلا وصبرا على العيش صبراً جميلا
وأحيى بلطفك جسما عليلا وكونى إذا العيش أضحى ثقيلا
له ناصره[1]

وعلى أية حال ، فقد وصل نسيب الشاعر ، مع روحه ، إلى ذلك الحد البعيد ، حيث يلتقى بجوهر الحياة ويعلم أنه شىء واحد ، لا يتغير ولا ينقسم وهنا تصبح كل المظاهر الخارجية متساوية ، ويصبح كل شىء بالنسبة إليه « سيان »[2] .

لقد حاولت من قبل أن أجد بعض الموضوعات الشعرية والعاطفية المشتركة بين نسيب عريضة والشاعر الإنجليزى ألفرد ادوارد هوسمان . ويمكننى هنا أن أضيف ما يوضح ما قلته من قبل ، خاصة أنه يمكن أن نلحظ بسهولة أن هوسمان كان يمتلك نفساً حساسة وروحاً محيَّرة معذبة أيضاً .ربما كان مرجع هذه الحيرة والعذاب إلى بعض الأحداث المؤلمة فى حياته ؛ من مثل : موت أمه يوم عيد ميلاده الثانى عشر ، وإخفاقه فى الدراسة فى جامعة أوكسفورد ، ورحيل صديقه العزيز ، ولكنه إلى جانب هذا كان يجد نفسه دائما مخلوقاً غريباً وسط أناس لا تهمهم سوى المظاهر المادية، مما جعله متشائماً حزيناً غير راض عن الحياة . وليس غريباً أن نجده يردد دائماً بيته المشهور :

---

(١) الأرواح ص ١٠٥ .
(٢) راجع الأبيات المذكورة فى صفحة ٢ من هذا الكتاب .

The world has still much good
But much less good than ill.

مازال فى العالم خير كثير ، ولكن الخير أقل كثيراً من الشر

ومثل نسيب ، نجد هوسمان يتحدث عن أشعاره وما تعبر عنه :

They say my verse is sad, no wonder, Its narrow measure spans
Tears of eternity and sorrow, Not mine, but man's.

يقولون إن شعرى حزين ، ولا عجب ،

إن محيطه الضيق ينسج دموعاً لا تنضب وآلاما لا تخف ،

إنها دموع الإنسانية وآلام البشر .

وأيضاً ، مثل نسيب، يتحدث هوسمان إلى نفسه سائلا إياها عن أشياء كثيرة فى هذه الحياة . مما لا يجد له جواباً ، فكان عليه أن يهدى روحه الحائرة ويطلب منها الانتظار والصمت :

Now, and I muse for why and never find the reason,
I pace the earth, and drink the air, and feel the sun.
Be still, be still, my soul, it is but for a season.
Let us endure an hour and see injustice done. (1)

كثيراً ما أتأمل الأشياء بعمق وأتساءل « لماذا » ولا أجد السبب .

إنى أخطو فوق الأرض ، وأشرب الهواء ، وأشعر بوهج الشمس ؛

فاهدئى يا نفسُ واهدئى ، إنه لفصل من الفصول ،

فلنتحمل ساعة من الزمن ، ونرى الظلم قد انتهى .

إن نظرة هوسمان المتشائمة والحزينة إلى الحياة ، وغربته وانفراده كلها مشروحة فى مجموعاته الشعرية ،وخاصة تلك المجموعة المسماة « فتى شروبشاير » (A Shropshire Lad) و « القصائد الأخيرة »(Last Poems) .

فكلها تصور نفس الحيرة ونفس الجواب المبهم أمام الكثير من مشاكل الحياة ، التى من أبرزها عنده : مسألة « الحياة والموت » .

---

(١) A.E. Housman : A Shropshire Lad XLVIII

To stand up straight and tread the turning mill,
To lie flat and know nothing and be still,
Are the two trades of man, and which is worse
I know not, but I know that both are ill.

أن تقف منتصباً وتخطو فوق الطاحونة الدائرة
وأن ترقد هادئاً ولا تعلم من أمرك شيئاً ،
إنهما مرحلتان للإنسان ، وأيهما أسوأ من الأخرى
لا أعلم ، ولكنى أعلم أن كليهما سيّئ .

٣

الروح والجسد والموت

ذكرت من قبل—وباختصار—أن النفس أو الروح أصبحت بالنسبة لنسيب وزملائه فى الرابطة القلمية أمراً هاماً كثيراً ما يتحدثون عنه أو يشخصونه ويتحدثون إليه . وهذه كانت نتيجة طبيعية لشعورهم بالوحدة والعزلة وعدم فهم الناس حولهم لهم . يرى إيليا أبوماضى أن الشاعر :

هو من يسائل نفسه عـــن نفسه فى صبحه ومسائه

فى هذه الحياة الغريبة التى تخصهم وحدهم أصبحت النفس أو الروح كل شىء فى دنياهم. هى الصديق الذى يشكون إليه ويثقون به. كل واحد منهم يحكى له عن مآسيه ويشكو له من سوء حظه ، منتظراً منه العزاء والسلوى ، سائلا إياه الاحتمال والرضى .

لا عجب إذن ، أن أصبحت هذه النفس بالنسبة إليهم سراً حقيقيا ؛ ما هى ؟ وماذا كان أصلها ؟ وماذا سيكون مصيرها؟ هل هى خالدة أم ستموت وتنتهى كالجسد ؟ هل هبطت من السماء ودخلت الجسد ؟ ومتى كان ذلك ؟ . . وغير ذلك من الأسئلة التى شغلت تفكيرهم وتأملاتهم وأنطقتهم بالقصائد والمقطوعات الجميلة فى مخاطبة النفس . ويتحدث ميخائيل نعيمة ، بعد فترة من التأمل والتفكير ، إلى نفسه قائلا :

إيه نفسى ! أنت لحن فىَّ قد رنَّ صداه
وقعتك يد فنان خفىٌّ لا أراه .
أنت ريح ونسيم ، أنت موج ، أنت بحر
أنت برق ، أنت رعد ، أنت ليل ، أنت فجر
أنت فيض من إله[1] !

---

(١) ميخائيل نعيمه : همس الجفون ط ٢ ص ٢١ .

وهنا يلتقى نعيمة بالنظرية الفلسفية الإغريقية القديمة التى ازدهرت فى الإسكندرية وعرفت باسم « الأفلاطونية المحدثة » Neo Platonism[١] ثم اعتنقها فيما بعد الفيلسوف الإسلامى ابن سينا ، الذى صاغ أفكاره فى أبيات من الشعر فى قصيدته المعروفة المسماة « قصيدة النفس » والتى يبدؤها بقوله :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وترفع

والواقع أن ابن سينا وقصيدته قد نالا إعجاب شعراء الرابطة ، خاصة جبران نفسه ، الذى تحدث عن الرجل بتقدير كبير ورسم له صورة من خياله وهو يقول عن قصيدته الفلسفية :

« ليس بين كل ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدى وأقرب إلى ميولى النفسية من قصيدة ابن سينا فى النفس [٢] » .

وكان نعيمة هو الآخر معجباً بنظرية النفس الفلسفية ، وهو أيضاً قد أرجعها إلى الأفلاطونية المحدثة . ونسيب يذكر هذه النظرية فى أكثر من قصيدة ، لعل أشهرها تلك التى سماها « يا نفس » والتى يقول فيها :

أحمامةٌ بين الرياح قد ساقها القدر المتاح
فابتلّ بالمطر الجناح يا نفس ، مالك ترجفين

ثم يسألها :

أصعدت فى ركب النزوع حتى وصلت إلى الربوع
فأتاك أمر بالرجوع أعلى هبوطك تأسفين ؟
أم شاقك الذكر القديم ذكر الحمى قبل السديم
فوقفت فى سجن الأديم نحو الحمى تتلفتين [٣] ؟

وفى قصيدة أخرى بعنوان « مناجاة » يتحدث إلى أخت ، وحه ، التى مازالت فى السماء ، والتى ستطير روحه إلى جوارها من جديد :

كانت لها الشهب عرشاً وكنتما فى اقتراب

---

(١) Encyclopocdia Britannica 11th edit. vol. XIX
(٢) مجموعة مؤلفات جبران ج ٣ ص ٢٢٩ .
(٣) الأرواح ص ٨٧ — ٨٨ .

فأُهبطت –"[?] فهى تخشى وتنزوى فى الحجاب
تظلّ غرثى وعطشى لقوتها والشراب
تقتات بالصوم حيناً وترتوى بالسراب[١]

ولكنه فى النهاية يعزّى نفسه بسؤاله لهما أن تصبرا ، فلابد أن تلتقيا فى عالم الخلود .

والواقع أن نسيباً لم يجد شيئاً آخر يعزيه فى حياة العزلة وسجن النفس ، ولهذا جاءت معظم قصائد ديوانه من وحى هذه النفس المعذبة . وقد يخطر بالبال أنه لقربه من روحه إلى هذا الحد ، وتعلقه بها ، كان جديراً به أن يفهمها أكثر من غيره ، ولكن من الغريب أنه لم يتمكن من التغلغل إلى سر وجودها ولم يقدر أن يحل لغزها ، ولذلك يسألها فى بداية القصيدة المذكورة أعلاه !

يا نفس مالك والأنين ؟ تتألمين وتؤلمين
عذبت قلبي بالحنين وكتمته ما تقصدين

وهذه القصيدة المشهورة « يانفس» كانت من أول قصائده التى جعلت عريضة وشعره معروفين للعالم العربى فى الشرق ، بعد أن عرف واشتهر فى الدائرة الأدبية فى الغرب ، وقد كتب كثير من النقاد حوله وأخذوا يحللون ما فيه من صور جميلة . وكان من أول الناقدين والمحللين فى مصر الأستاذ الدكتور محمد مندور الذى اعتبر هذه القصيدة مثلا لما يسميه « الشعر المهموس » « عندما يهمس الشاعر فتشعر بأن صوته يأتى من أعماق روحه فى نغمات حارة »[٢] .

ومندور ليس متأكداً من هدف تساؤلات كل هؤلاء الشعراء ، هل هى نوع من اللوم أو التأنيب ؟ أو لمجرد الشفقة ؟ ولكنه متأكد من شىء واحد هو : أن الشاعر صادق ومخلص فى التعبير عن هذه الحالة النفسية ، مملوء بالحيرة

---

(١) الأرواح ص ٧٧ .
(٢) محمد مندور : فى الميزان الجديد ص ٤٨ .

والقلق الذى يجعل الروح ترتجف مثل حمامة مبلولة ! كما أنه كان عارفاً بالنظرية الأفلاطونية المحدثة التى تتضح من أبيات نسيب « أصعدت » إلخ .

وفى تحليل الدكتور محمد نجم والدكتور إحسان عباس لهذه القصيدة نفسها ، نلمح ملحوظة هامة عن هذه المعركة المستمرة بين روحه وجسده ، أو ما أطلق عليها نعيمة « روحه السماوية وجسده الأرضى بين كيانه الخفى وكيانه الظاهر(١) ».ومنذ البداية نجد نسيباً يلوم نفسه لأنها سببت لقلبه التعب والمعاناة وعذبته بالحنين . ويبدو أن القلب هو الرمز للجسد عند نسيب ، برغم أنه كثيراً ما يتحدث عن الجسد ككل ، ويطلب من نفسه أن ترحل ، لأن جسمه لا يستطيع أن يتحمل أكثر من هذا :

يا نفس هل لك فى الفصال فالجسم أعياه الوصال
حمّلتِـه ثقل الجبال ورذلته لا تحفلين

ثم يكمّل كلامه ذاكراً تلك الأثقال التى سببت كل هذه المعاناة :

عطش وجوع واشتياق أسف وحزن واحتراق
ياويح عيشى هل تطاق نزعات نفس لا تلين ؟(٢)

إن قلبه الحقيقى يصبح بالنسبة إليه كطفل يرجو العطف والمحبة ،أو يستدر الحنان بفتح ذراعيه لأمه ، ولكن ، للأسف ! إن أمه قاسية قد غذته المرارة وفطمته صغيراً وحرمت عليه بهجة الحب ، حتى أصبح كشيخ عجوز ، يسير بطيئاً نحو النهاية :

والقلب وا أسفى عليه ! كالطفل يبسط لى يديه
هلا مددت يداً إليه كالأمهات إلى البنين !
غذيته مر الفطام وحرمته ذوق الغرام
وصنعت شيخاً من غلام يحبو على باب السنين

(١) نعيمه : الغربال ص ١١٧ .
(٢) الأرواح ص ٨٩ .

وفى نفس القصيدة يصور القلب كذبابة تحتضر فقد أمسك بها بيت العنكبوت . تظل ترقص بألم على أنغام الصمت، وطنينها لا يفيد شيئاً . وكذلك قلبه يغنى طرباً فى شرك الرجاء والأمل ، والحق أنه ليس غناء ، بل رثاء يبكى به الأمل الضائع[١] .

هذه القصيدة الطويلة فى النفس ليست الوحيدة التى وبخ فيها نسيب نفسه وعنفها على قسوتها فى معاملة قلبه وجسده . ففى قصيدة أخرى له ، كتبها سنة ١٩٢٠ يخاطب نفسه مرة أخرى ويسألها—كالعادة—عن السبب لكل هذه الشكوى والأنين ، يحدثها بهدوء وحنان فى البداية ثم سرعان ما يغضب ويصفها بأنها كافرة ويرجوها بشدة أن ترحم جسده :

أقلى النزاع وكفى الصراعا فقد كاد جسمى أن يتداعى

وليس جسده فقط الذى أوشك أن يتداعى ، بل قلبه أيضاً . وعن هذا القلب المتعب يتحدث فى قصيدة أخرى سماها مركب الفؤاد فيقول :

قلبى بلا شراع يطوف فى البحار
قد قارب التداعى من كثرة الأسفار[٢]

ويستمر فى حديثه مصوراً قلبه كسفينة حقيرة بلا قائد تتخبط فى ظلمات الحيرة ، ونورها الوحيد هو الإيمان . وهذا القلب المرهق المعذب قد عبر البحار ينشد الوصول إلى جزر الخلود ، لعله ينجو من لجة هذا الوجود ،وبالطبع، لا نتوقع أن تكون رحلة هذا القلب هادئة أو مطمئنة ، فسرعان ما بدت له الشكوك كمرافئ تدعوه للاقتراب منها ، ولم يكن هناك مهرب من هذه الحالة المسيطرة إلا أن يلجأ للانتظار ، انتظار النهاية ، فهناك فى الأعماق سيجد قلبه ملجأه الأمين .

لقد كان قلباً ضعيفاً عزيزاً على نسيب ، وكان قلقاً عليه دائماً ؛ يخاف أن تثقله روحه بأعبائها . وفى عام ١٩٢٤ كنا نجده لايزال يسأل هذه النفس

---

(١) الأرواح ص ٩٠ . (٢) الأرواح ص ١٦٦ .

عن سبب صراخها الذى كان لا يزال يجهله . كما ظل قلقاً على جسده الذى أعيته النفس بالحنين . إنه يسألها الصبر لأنها ستتخلص بعد الموت ، عندما يفنى الجسد وتغطيه الأكفان .

لقد بدأت فكرة الموت القريب تسيطر عليه ، وقد عبر عنها فى قصيدة تالية أطلق عليها عنوان « مَنْ نحن » يعترف فيها أن الجسم قد استسلم عن عجز وخضوع ، بينما الروح مازالت ثائرة تحمل السلاح . إنه يحس أن غروب شمس حياته قد اقترب ويسأل الظلام أن يأتى ليحل محلها ، فإن قلبه يجد الأمان فى الليل .

إن الصراع بين النفس والجسد فى شعر نسيب هو أيضاً تعبير عن النظرية الأفلاطونية المحدثة ، فالنفس قد هبطت من عالمها العلوى ودخلت الجسد سجنها الأرضى ، غصباً عنها ، فكثيراً مايغالبها الحنين والشوق للعودة إلى مقامها ، الأصلى . ولكن الظاهرة الجديدة فى شعر نسيب هى تعاطفه مع جسده فى هذا الصراع وليس مع نفسه ، بالرغم من أن النفس من عنصر سماوى وعودتها لابد منها . إنه حب نسيب للحياة ، ذلك الحب الذى يجعله لا يستسلم لقوة النفس العليا وعودتها المرتقبة .

من السهل أن يلاحظ القارئ لديوان نسيب عريضة أن الغروب والذبول والموت ، قد أصبحت بالنسبة إليه موضوعات تأمل وتفكير من الآن فصاعداً . ولم يكن أبداً متأكداً من نفسه ؛ فمرة نجده وقد سيطر عليه اليأس والألم ، ينتظر بقلق وترقب مصيره ونهاية حياته ، كما رأينا فى القصائد السابقة . وفى قصيدة أخرى ، فى نفس السنة ، نجده يترقب نهاية حياته بألم ويسأل شمسه أن تغرب ببطء ، فقلبه لم يحقق رغباته بعد ، وإنما كان يقاسى ويتحمل . وفى هذه القصيدة الحزينة يبكى على الحياة ويبدو وقد ملأه الخوف من الطريق المجهول ، يطلب معونة مرشد يخبره عن الهدف من هذه الرحلة ، وهل سيعودون منها أم يبقون بعيداً هناك . ويبدو تردده واضحاً فى نهاية القصيدة عندما يقرر

أن الحياة ليست سوى خيال لا قيمة له. فيسأل شمس الخلود أن تسطع ، فهى الوحيدة الباقية .

ليس من الغريب أن نجد أن فكرة الموت قد أثرت على كثير من الكتاب والشعراء فى الأدب العالمى ، فبالنسبة للرومانسيين ، على وجه الخصوص ، يشكل الموت واحداً من أهم العناصر ، بل هو العنصر الذى منحهم الإلهام وأثار لديهم الكثير من التفكير والتأمل ، وعند بايرنByron وشيللىShelley وكيتس Keats ووردسورث Wordsworth بين الرومانسيين الإنجليز ، كانت فكرة الموت ملهمة فى كل الأوقات . وأجمل أشعار توماس هاردى Thomas Hardy وأكثرها تأثيراً كانت من وحى موت زوجته الأولى وذكرياته عنها .

وألفرد إدوارد هوسمان واجه أول حادث سيّئ فى حياته فى مساء عيد ميلاده الثانى عشر ، عندما وصله نبأ موت أمه ، فكان هذا نقطة تحول فى شخصيته ، بدأ يشعر بالحزن ويتأمل الطبيعة التى اعتقد أنها الشىء الوحيد الذى يفهم مشاعره . ومن هنا قرأ كل ماكتبه ورردسورث وسكوت Scott وشللى وبايرون وتنيسون وماثيوآرنولد وكيتس وملتون Milton حول الحزن والفراق والموت . ويعتقد بعض النقاد أن أجمل أشعاره هى القصائد الثلاثة التى تحدث فيها عن الموت(١) ولا نستغرب عندما نقرأ نصيحة هوسمان للإنسان ، ونحس كأنه يصوغ أفكار نسيب عريضة فى كلمات من صنعه :

Lie down, lie down, youing yoman
What use to rise and rise ?
Rise men a thousand mornings,
Yet down at last he lies,
And then the man is wise.

ارقد ونم أيها المزارع الشاب ، فما جدوى النهوض ثم النهوض ؟
مادام الإنسان ينهض آلاف المرات ، ثم يرقد أخيراً فى نومة أبدية ،
وعندها يصبح الإنسان حكيما .

---

(١) Last Poems : XXIX, XI, XLI

ثم يستمر قائلا [١] :

Lie down, lie down, young yeoman,
The sun moves always west
The road one treads to labour
Will lead one home to rest
And what will be the best.

ارقد ونم أيها المزارع الشاب ، فالشمس تجرى دائماً نحو الغرب ،
والطريق الذى يقطعه المرء فى العمل سيقوده إلى الراحة الأبدية ،
وليس هناك ما هو أفضل منها .

هذا الحب للموت — فى الواقع — نوع من أساليب الهروب التى يلجأ إليها فى العادة هؤلاء الشعراء الرومانسيون الرقيقو المشاعر . وإن يكن هذا الملجأ ليس ملجأ واقياً ، فالانتصار من خلال الموت انتصار سلبى هو نتيجة عدم القدرة على النجاح فى الحياة وبالتالى رفض هذه الحياة وما فيها . كان ابن الرومى واحداً من الشعراء العرب الذين هربوا من مواجهة الحياة إلى التأمل فى الموت ولكنه سرعان ماهرب من الموت نفسه إلى عالم من الحيرة الخاصة به وإلى الشك وعدم الاقتناع .

وأبو العلاء المعرى معروف بفلسفته فى الحياة والموت ، وشكه فى الروح ونهايتها ، وتأملاته فى شئون العقل والجسد [٢] .

وقد صدم عدد من شعراء الرابطة القلمية بموت شقيق أو شقيقة أو زوجة أو ابنة . فجبران مثلا لم يتركه شبح الموت منذ وفاة شقيقته ، إذ فقد بعدها شقيقه ثم أمه فى بوسطن . وهذا الشبح أوحى له بأكثر من أمثولة أو مقطوعة شعرية. « إن حنينه للموت حقيقى لدرجة أنه قد اعترف بعزمه على الانتحار .

---

(١) A Shropshire Lad XXVII

(٢) يرى البروفسور جب أن : « كتاب المدرسة السورية الأمريكية قد أعطوا أهمية خاصة لشعر أبى العلاء المعرى ، الذى راقت فلسفته العقلية ونظرته التشاؤمية لروح العصر . والذى أحدثت آراؤه وسيلة اتصال بين الفكر العربى والفكر الأوربى (Bsoas. Vol. IV p. 745-760) .

فقد أصبح يشعر بغربته وعزلته عن المجتمع والطبيعة ، وعن نفسه، ولم يبق له سوى الشوق إلى موطنه الأصلى فى العالم الآخر ، إن شعوره بالعزلة عن الحياة الطبيعية سواء فى لبنان أو فى أمريكا جعله يتطلع إلى موطن فى العالم الآخر ، ويلجأ إلى معتقداته المتسامية أو الغيبية (Transcendtal beliefs) إن حبه للموت بمثابة حنين اليتيم إلى روح أمه ،التى تقطن فى عالم الخلود »[1] .

الهرب إلى العالم الآخر أسلوب آخر من أساليب الهروب فى شعر شعراء الرابطة القلمية ، وسنتحدث عنه فى صفحات تالية . وبالرجوع إلى موضوع الموت نفسه وتأثيره على نسيب عريضة ، يلاحظ بصورة واضحة أنه كان له تأثير كبير على قلبه الرقيق منذ اليوم الذى توفى فيه شقيقه فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، لقد أوحت إليه وفاته واحدة من أجمل قصائد الرثاء هى « ذكرى الغريب » التى أهداها إلى روح أخيه ، وبدأها بقوله :

غريب على الباب يرجوالدخولا أثار النوى فيه شوقاً طويلا

ويتحدث عن أخيه ، كما لو كان الحديث عنه هو نفسه ؛ إنه قادم بحالة مريضة حائرة ليقابل أهل الخلود ، نعم ،فإنه قد قضى حياته فى التيه وفى الفقر ، ثم يكمل وصف حالته :

وأبصر أنواركم فى اشتعال فسار إليها يروم الوصولا

ومثله أيضاً ، قضى شقيقه عمره غريباً بين الناس، وفى هذه الأرض، يشتاق دائماً للموطن الروحى الذى ما لبث أن وصله، وعندما تلفت نحوموطنه القديم أنكر أطلاله ورسومه ولم يصدق أنه قد عاش زمانه فى ذلك السجن الأرضى .

لا عجب أن تؤثر وفاة هذا الشقيق فى نسيب فتحول استغراقه فى التفكير إلى حالة من الشك ، وتشغل عقله فى مسائل من مثل :

أليس الممات غروباً يليه شروق ، أليس الحياة أصيلا ؟

---

(١) رسالة الدكتور خليل حاوى عن جبران ، مخطوط فى مكتبة جامعة كامبردج ، ص ٢٨١ .

أم الموت خاتمة لا يليها — ابتداء ولا تستعيد الفصولا ؟

يخيل لقارئ هذين البيتين وأمثالهما أن نسيباً قد فقد إيمانه وتصديقه بيوم القيامة ، ولكن الواقع أنه لم يكفر ، وإنما هى حالة القلق والحزن العميق تسبب لديه هذه التساؤلات ،من مثل تساؤلات المعرى قبله بكثير ، والتى أطلقها بصوت أقوى ونغمة أشد إنكاراً . ويتحدث نسيب مرة أخرى عن قلبه المتعب الذى آله الحزن كثيراً مما لا يعيد له الهدوء من جديد :

وقد دك حزنى هياكل سلم بقلبى ونفسى فصارت طلولا
وقفت أناجى خراباتها وقد خيم الليل فوق ثقيلا

ويتحدث نسيب عن حزنه حديثاً طويلا ، ثم ينتقل فى القسم الثانى من هذه القصيدة التى تبلغ مائة وثمانية وعشرين بيتاً إلى خطاب قلبه والتحدث إليه بهدوء ولطف ، يسأله أن يكف عن البكاء، ويحاول النوم ليحلم بعالم الخلود . وأخيراً يرى أن أخاه قد سُمح له بالدخول وأصبح ساكناً هادئاً فى العالم الآخر ، بينما هو مازال يحمل أثقال عمره ، ولكنه سيظل ينتظر دوره .

وفى بعض أبياته ، يطلب نسيب من شمس الحياة أن تغرب بسرعة لتحل محلها شمس الخلود :

أشمس الحياة اسرعى وغيبى فأنت خيال
أشمس الخلود ، اسطعى إليك ، إليك المآل

وفى مكان آخر :

يا عاصفات هبى وغرّقى السفين
فى العمق يلقى قلبى مرفأه الأمين

لقد سيطرت فكرة الموت على نسيب من الآن فصاعداً ورافقته خلال بقية سنوات عمره ، خاصة أنه فى تلك السنوات أصبح جسمه ضعيفاً يغالب المرض . كان يرى الموت فى منامه ويصحو مذعوراً ، فيسأل محبوبته أن تأتى وتهدئ روحه المرتعبة .

بل لقد بدأ يفكر فى قبره الذى سيدفن فيه، وعلى أى شكل يريده . ومرة أخرى نجده حائراً وغير متيقن من رغباته؛ فمرة يسأل أهله أن يبنوا قبره فى مكان هادئ مرتفع ، بعيد عن ضجة العالم الفاسد ، حيث تنيره شموس الحب والوفاء . وفى الشطر الثانى من القصيدة يطلب من أصدقائه أن يبنوا قبره فى واد منعزل ، حيث ماتت الأحلام وحل الفناء محل كل شىء ، حيث رويت تربة الهداية بعاصفة اليأس ، وملأ الدود المكان وأكل الأخضر واليابس إنه مكان النار المحرقة ! وفى كلتا الحالتين يتخيل أن قبره سيكون فى أعماق القلب »[1] .

وفى مقطوعة إنسانية من أربعة أبيات، حاول نسيب أن يقدم وصفاً حقيقياً لنفسه ، عندما طلب من قومه أن يزينوا قبره بدمية من حجر ، ستكون رمزاً لحياته ، ليعرفه الناس بعد موته . ولكنها ستكون دمية غريبة فإن لها :

يدان بلا جسم تمدان فى الفضا ... تمدان من صخر على القبر يربض
فيمناهما مبسوطة تشحذ الجدا ... لتشبع جوع النفس ، والجوع يرفض
ويسراهما فيها فؤاد مضرج ... تقدمه للناس والناس تعرض

وهذا وصف صادق لحياة نسيب ولروحه ، فقد مر بتجربة ذلك الجوع الروحى الذى لم ينته ، ومن وجهة أخرى كان حبه للناس إنسانياً خالصاً ذلك الحب الذى لم يتوقف برغم أنه قوبل بعدم التقدير فى أحيان كثيرة .

لن نقفل هذا الفصل عن فكرة الموت وأثرها الكبير فى حياة نسيب وشعره، دون أن نذكر مرة أخرى ، أنه وقع فى تأملاته عن الموت ، تحت تأثير اتجاهات أدبية مختلفة ؛ بعضها شرقى ،من الأدب العربى كما ذكرنا من قبل ، أو فارسى ، كما يلاحظ من مقارنة بعض أبيات نسيب بما هو معروف من رباعيات عمر الخيام .

وبالنسبة للأدب الغربى ، فقد سبق أن قارنا أفكار نسيب عن الموت بأفكار بعض شعراء الإنجليز فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

---

(١) الأرواح ص ١٤٤ .

أخيراً ، فإن عريضة كان يتقن اللغة الروسية ، التى تعلمها فى مدرسة الناصرة ، وقرأ كثيراً فى الأدب الروسى . وكثير من الشعراء قد تحدثوا عن الموت وتأملاتهم فيه . ولاشك أن قراءة كتابات وأشعار لشعراء وكتاب معروفين من مثل : بوشكين Pushkin ولرمونتوف Lermontov وجوجول Gogol ونكراسوف Nekrassov وغيرهم ، قد زادت نظرة نسيب الحزينة إلى الحياة والروح المتشائمة التى لم يتخل عنها طيلة حياته[1] .

---

(١) توجد بعض الأمثلة من شعر نسيب المترجم عن الروسية فى ديوانه وفى بعض أعداد مجلة « الفنون » .

٤

أم الحجار السود

ذكرنا من قبل أن كل عضو من أعضاء الرابطة القلمية كان لديه هذا الشعور بالغربة والعزلة عما يحيط به . وقد جاء كل منهم من بلده ولديه شعور بالثورة ضده من عدة نواح : اجتماعية ودينية وسياسية ، بل من الناحية الأدبية أيضاً . ولقد كتب بعضهم من قبل ضد تلك الأشياء فى موطنه ، ولكن دون جدوى ، فلم يكن هناك بديل من ترك ذلك الموطن ، والتجول فى بلاد غيره بحثاً وراء الفضيلة والحرية والتسامح .

والسؤل الآن : هل أمكنهم أن يجدوا كل تلك الفضائل والمثل فى العالم الجديد ؟ نخشى أن يكون الجواب بالنفى ، فسرعان ما يستيقظ الفتى الحالم المستوحد فيجد نفسه فى محيط جديد يمنحه الحرية السياسية والاجتماعية ، ولكنه يجعله عبداً للآلة أو المادة . وبدلا من أن يشعر بنوع من الانسجام بينه وبين محيطه الجديد ، يالخيبة أمله إذ يجد نفسه مجرد غريب فى بلاد تختلف كلية عن بلاده التى قدم منها . فيحاول أن يتذكر كل النقاط السيئة ، والفساد الذى كان مستشرياً فى الجو السياسى والاجتماعى هناك ، ولكنه يخفق فى تذكر كل الأشياء التى ثار ضدها ، إن الحقائق تصبح ملطخة ، مجرد صورة غامضة وذكرى يغطيها الضباب ، وفى مكانها يظهر عالم ليس فيه شىء قبيح ولادنىء ولا شرير ، عالم يشبه الحديقة الغناء العطرة ، ينظر إليه الشاعر نظرة وردية ملؤها الوهم العاطفى الجميل .

إن شعر الشوق والحنين قديم قدم الشعر العربى نفسه ، فإن طبيعة الحياة قبل الإسلام أجبرت الناس على التنقل من مكان إلى آخر وراء الكلأ والماء . وكثيراً ما تذكر شعراؤهم تلك الديار التى تركوها وبكوا ما عرف فى الشعر

العربى بالأطلال أو الدمن . وليس من المؤكد ماإذا كان امرؤ القيس الكندى هو أول من صاغ مثل تلك الأشعار أو أن هناك من سبقه إلى ذلك ، ولكن من المؤكد أنه كان ومايزال معروفاً ببداية القصيدة الشعرية :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ثم جاء عنترة وبقية شعراء المعلقات ، الذين تبعوا خطوات قائدهم ودليلهم .

وفى العصر الإسلامى نستمع إلى شاعر كجرير يقول :

قل للديار سقى أطلالك المطر قد هجت شوقاً فماذا تنفع الذكر

وفى العصر العباسى نستمع أيضاً إلى شاعر مشهور كأبى تمام الذى ارتحل ما بين مصر وسوريا والعراق ، ثم نراه يسترخى بهدوء قائلا :

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

والمتنبى ،الذى عرف بعدم الإقامة فى مكان واحد والذى ظل يسافر طيلة حياته — من بلد إلى آخر ، لم يختلف عن غيره فى بث عواطف التذكار ، والشوق والحنين للموطن الأول ومن فيه من أهل وأحباء :

أحن إلى أهلى وأهوى لقاءهم ...

ولقد حفظ طلاب الأدب العربى الكلاسيكى دائماً بيتى ابن الرومى المشهورين :

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنّوا لذلكا

وكان الثائر الوحيد ضد هذه البداية فى القصيدة العربية هو الشاعر العباسى المعروف أبو نواس ، ولكن، لم يقدر لثورته أن تنجح ، وعندما نأتى إلى بداية العصر الحديث فى الأدب العربى نجد أمير الشعراء أحمد شوقى لم يقصر فى التعبير عن حبه لمصر ، وشوقه إليها ، وإلى أمجادها القديمة وازدهارها الحديث. لقد عبر عن كل هذا فى بيته الذى يحفظه التلاميذ أيضاً :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

من المعقول إذن أن شعراء المهجر لم يُستثنوا من هذا التأثير العاطفى الشامل، بل على العكس ، لقد عبروا عنه أكثر من أى ممن سبقوهم . وعندما نقرأ أشعارهم فى الشوق والحنين نلحظ أن معظمها من النوع الوصفى ؛ فكثيراً ما يذكرون ظواهر طبيعية خاصة ومناظر معينة فى أوطانهم ، فشاعر كرشيد أيوب مثلا يتذكر دائماً جبال لبنان وخاصة « صنّين » الذى قضى فى واديه طفولته السعيدة ، يتذكر ليالى الثلج الباردة حين كانت الأسرة تلتف حول الموقد فى ألفة ومحبة طبيعية . والحصباء البيضاء التى يقفز من فوقها ماء النهر تكوّن لديه صورة لا يمكن أن ينساها ، خاصة عندما يتذكر صورة ظل محبوبته المنعكس فيه[١] .

وبالنسبة لإيليا أبى ماضى فإن نجوم لبنان هى الوحيدة المتلألئة بين نجوم العالم، والمطر الذى يسقط على ثراه هو أعز الأمطار إلى نفسه[٢] فلا عجب أن يصرخ أبو ماضى فى نهاية إحدى قصائده عن لبنان :

وطنى ستبقى الأرض عندى كلها حتى أعود إليك أرض التيه

وكلمة التيه فى الواقع استعملت أكثر من مرة من قبل أعضاء آخرين فى الرابطة القلمية . ويعنون بها ما يعرفونه من قصة التوراة التاريخية عن موسى وقومه الذين تاهوا فى صحراء سيناء ، ومكثوا فى التيه ، حتى قادهم الله إلى « الأرض التى تفيض لبناً وعسلا »

ولم تكن سوريا أقل حظّاً من لبنان فى إثارة عواطف الشوق والحنين وذكريات الأيام الحلوة .

لم يكن عدد كبير من الشعراء سوريين ، ولكن ، حتى هذه القلة جادوا بشعر جميل ورصين. إن ندرة حداد—مثلا—يشتاق إلى نهر العاصى ، وهذا يذكره بالنهرين الآخرين اللذين يرويان الأراضى السورية ؛ بردى والبردونى . وعندما خرج ندرة فى نزهة برية فى ريف أمريكا وجلس على شاطئ نهر

---

(١) رشيد أيوب : هى الدنيا ص ٣٦ .

(٢) أبو ماضى : الخمائل ص ٨١ .

صغير تحت شجرة صفصاف عالية ، وشمّ رحيق الأزهار المتفتحة ، واستمع إلى زقزقة العصافير .. كل هذا الجو الباعث على النشوة أثار لديه ذكريات موطنه الأول الحبيب ؛ سوريا، بجداولها وحدائقها وطيورها وهوائها المنعش وسمائها المشمسة[١] .

وبالرجوع إلى نسيب عريضة الذى كان أيضاً سورياً من حمص ، نجد أن الحنين عنصر من العناصر الرئيسية التى تكون شخصيته الشعرية . فنرافقه منذ البداية حتى نرى كيف أن هذه العاطفة المقدسة من حب الوطن والشوق للعودة إليه ، تغلبت عليه فى كل أدوار حياته .

ها هنا نلتقى بفتى السابعة عشرة وقد وصل إلى ميناء نيويورك ، مملوءاً بالأمل ، متطلعاً إلى مستقبل سعيد يحقق فيه أحلامه وأمانيه . ولكنّ الليلة الأولى فى نيو يورك كانت فظيعة بالنسبة إليه ، بدت المدينة الكبيرة فى الظلام بمثابة كابوس لا يريده أن يتحقق . وخيل إليه أن العمارات الضخمة وناطحات السحاب الشاهقة ليست سوى تنانين مخيفة ذات رءوس متعددة وعيون يتطاير منها الشر . ومن بعيد رأى الأنوار الوهاجة وكأنها جلد براق لأفعى مخيفة سامة ، لها فحيح من صوت الضجيج فى شوارع المدينة الكبيرة .

ويستمر نسيب فى ذكر كل الظواهر المرعبة والمؤذية فى العالم الجديد ؛ حيث الحياة البعيدة عن الفضيلة والطهارة والعدل الحقيقى . ويعطى نسيب تفاصيل دقيقة فى هذه القصيدة ، لكل الأحداث السيئة التى لاقته فى نيويورك ، ويقول إنه أكثر من مرة كان هناك نداء فى داخل نفسه بأن يعود من حيث أتى ، ولكن هذا كان بعيداً عن التحقيق باعتبار ظروفه المالية ، فأخذ يسلى نفسه بالأمل وبدأ يتخيل الأشياء عكس حقيقتها ؛ فأصبحت ناطحات السحاب قصوراً من النجاح . وصار يرى الثروة والجمال يناديانه والحرية تنير طريقه[٢] .

---

(١) ندرة حداد : أوراق الخريف ص ٤١ – ٤٦ .

(٢) الأرواح ص ٢٦٩ – ٢٧٣ .

لقد تأمل نسيب ، ورجا من هذه الأفكار المتفائلة أن تنير طريقه فى كفاحه الطويل ؛ ولكن لسوء الحظ ، فإن أحداث حياته لم تساعده على ذلك . فقد التقى بمآسى الحياة واحدة وراء الأخرى ؛ موت أخيه ثم عثرات «الفنون» ، وكفاحه من أجل إعادتها ، وبضعة أحداث عائلية وأنباء سيئة عن الأهل فى الوطن . وفى النهاية سيطر عليه حنين جارف لبلده الأصلى ومدينته العزيزه « حمص » لقد رأى «حمص» مرة فى سلة فواكه معلقة فى حانوت بقال ملأى بالتين والرمان والعنب . وهذا المنظر أثار لديه ذكريات حدائق حمص وكرومها اليانعة :

وقفت رغماً وحولى الناس ما وقفتْ
أراقب السلّ ، والأثمار قد بسمتْ
كأنها إذ رأتنى ذاهلا عرفتْ
أنى غريب ، فحيتْنى وما نطقتْ
فطار قلبى حنيناً نحو أوطانى

لقد تأثرت روحه ، وحمله خياله بعيداً نحو التاريخ القديم للشرق ؛ ذلك التاريخ الذى رآه منعكساً فى الفواكه المتلألئة : تذكّر قصة سليمان فى التوراة ، عندما أحب الراعية الجميلة « شوليث » التى كانت تسوق قطيعها على أنغام نايها الساحرة . وهذا الرمز إلى المحبوبة التاريخية يعبر عن شوقه إلى شابات حمص الجميلات البريئات[1] .

ويعترف نسيب أن الجزء الأخير من القصيدة السالفة الذكر مبنىّ على قصيدة لشاعرة أمريكية . وعلى أية حال ، فهذا لا يقلل من قيمتها كقصيدة ملؤها الوفاء والذكر الحسن لموطنه فى سوريا .

وفى قصيدة أخرى من الديوان يغلب نسيباً حنينه فتأتى كلماته دافئة تعكس عاطفة عميقة ، وروحاً ممزقة ، ونفساً حائرة :

---

(١) الأرواح ص ٩١ – ٩٥ .

أنا المهاجر ذو نفسين ، واحدة تسير سيري ، وأخرى رهن أوطاني
ابن العروبة — لا أسلو الربوع ولو كانت مثيرة أوصابي وأشجاني
ما إن أبالي مقامي في مغاربها وفي مشارقها حبّي وإيماني

ويعد السنين الطويلة التي مرت منذ رحياه عن الوطن فيجدها قد جاوزت الثلاثين ، ولكن الذكريات مازالت نقية واضحة ، كما لو حدثت بالأمس . هكذا يكون وفاؤه وحبه لوطنه :

مرت ثلاثون لم أنس العهود — وهل تنسى مواثيق أرحام وأيمان

ونلاحظ هنا دعوة مبكرة للوحدة العربية في أبيات نسيب عريضة التي يذكر فيها أنه لا يهتم بالحدود السياسية والجغرافية التي على الخريطة إذا كان ينتمي لأي بلد عربي ؛ من العراق في الشرق إلى وهران في الغرب ، وتدخل في هذه الحدود بالطبع كل من سوريا ومصر ولبنان وفلسطين ونجد ومكة في الحجاز[1] .

يرى بعض النقاد أن شعر الشوق والحنين عند شعراء الرابطة ينقسم إلى ثلاثة أقسام[2] :

١ — التعبير الصريح المباشر عن حب الوطن ، والشوق لكل ما يتذكره الشاعر عن البلاد التي ارتحل عنها . وفي هذا الجانب كان شعراء الرابطة مخلصين وصادقين بالقدر الذي رأيناه في الأبيات المذكورة سابقاً . ونسيب عريضة بطبيعته البسيطة النقية كثيراً ما عبر عن عواطفه ومشاعره بصورة حماسية موحية كما سنرى في قصائده التي خاطب فيها بلدته حمص .

٢ — التعبير عن الحنين في صورة حلم ؛ وهذا يحدث عندما يجتذب الانتباه موضوع معين ويستثير ذكريات الماضي ، كما حدث لنسيب عندما شاهد سلة الفواكه في دكان البقال .

---

(١) الأرواح ص ٢٤٥ .

(٢) إحسان عباس ومحمد نجم : الشعر العربي في المهجر ص ١٢٨ .

٣ – التعبير غير المباشر عن الحنين والشوق ، عندما تبدو الروح القلقة حزينة عاجزة ظامئة : تبحث دائماً عن المجهول أو تتطلع إلى أيام الطفولة السعيدة ، بأمل العودة إليها . وقد تأخذ اتجاهاً مختلفاً تماماً بالتطلع إلى الأمام عن رغبة فى الوصول إلى « الغاب » .

لقد كان عريضة أقل الشعراء تعبيراً عن فكرة « الغاب » وما تتضمنه ، ربما لأن بلدته الأصلية حمص ليس فيها غابات كثيفة بقدر ما فيها من الحدائق والرياض . بينما الشعراء اللبنانيون من أعضاء الرابطة مثل جبران وأبى ماضى ونعيمة وأيوب كثيراً ما ذكروا الغاب ، ووجدوا فيه ملجأ ورمزاً للحياة البسيطة السهلة الخالية من التعقيد . وقد شرح جبران هذه الفكرة للقارئ فى مجموعته المسماة « المواكب » من خلال المحادثة التى دارت بين الصبى والشيخ بعد التقائهما فى الغاب .

والغاب ، مذكور بصراحة فى « الأرواح الحائرة »[1] مرة واحدة ، عندما كتب عريضة رباعياته ، التى ملأها بتأملاته فى الحياة والموت بأسلوب يذكرنا بأسلوب الخيام . وتقول إحدى رباعيات نسيب :

فصاحت النفس بى وقالت : مالى وللناس والزحام
أصبتِ ، يا نفس فاتبعينى فليس كالغاب من مقام
يا غاب ، جئناك للتعرى أنا ونفسى ولا حرام
فليُذعِ الغصن ما يراه منّا إذا أحسن الكلام

وهكذا ، كان الغاب ، بالنسبة لشعراء الرابطة ، رمزاً لذلك العالم المثالى الذى ما فتئوا يتطلعون إليه ويتمنون الوصول إليه ، وبالنسبة لنسيب عريضة ، نجده قد صور هذا العالم المثالى فى صور أخرى غير الغاب ، لعل أهمها وأبرزها عالم « إرم » الذى سنتحدث عنه فى فصل خاص .

كانت الطبيعة منبعاً أساسيًّا للوحى الدائم بالنسبة للشعراء فى مختلف البلدان. وبالنسبة لشعراء الرابطة كانت طبيعة بلادهم الحبيبة فى الشرق مبعث الكثير

---

(١) الأرواح ص ٨٥ .

من الذكريات السعيدة وملهمة الصور الشعرية الجميلة . لقد لعبت جبال لبنان ووديانه وأنهاره وأرزه الشهير دوراً كبيراً أوحى لهم بالكثير من أبياتهم الرائعة .

لم تكن طبيعة سوريا مثل طبيعة لبنان فى تغيرها وتنوعها ،ومع ذلك فإنا نجد المدينة السورية « حمص » مذكورة كثيراً من قِبَل ابنيها الشاعرين : نسيب عريضة وندرة حداد . إنهما يذكران فيها روضتيها المشهورتين : المياس والدوير . وأيضاً هى مذكورة من أجل شىء غريب ومختلف فيها ؛ من أجل حجارتها السوداء وترابها الرمادى ،خاصة فى أطراف المدينة . وبالنسبة لنسيب عريضة الذى يعيش فى نيويورك وينظر إلى حمص والوطن بعين الشوق والأحلام ، تبدو تلك الحجارة السوداء غاية فى السحر والإيحاء ، مما جعله يكتب قصيدة طويلة يخاطب فيها بلدته « حمص » ويدعوها « أم الحجار السود » يحكى بعض الأحداث السعيدة التى كان لايزال يذكرها من أيام طفولته هناك ، ثم يخاطبها باسم « عروس العاصى » .

وفى القسم الثانى من القصيدة يتذكر نسيب بعض الأحداث التاريخية وبعض الشخصيات التى لها علاقة بمدينة « حمص » فيأتى فى المقدمة الشاعر الحمصى المعروف : ديك الجن الحمصى الذى أوحى إلى نسيب كتابة قصته بالنثر ، وقد طبعت عام ١٩٢٠ (١). كما يوجد فى مدينة حمص قبر القائد الإسلامى المعروف «خالدبن الوليد» الذى لقبه الرسول صلى الله عليه وسلم « سيف الله المسلول » . ولم ينسَ نسيب —الشاعر المسيحى— أن يذكر هذه الحقيقة بالفخر ، مما يبين نظرته الدينية المتسامحة ، وهذا ما عرف عن كل شعراء الرابطة ، بل شعراء المهجر بوجه عام ، إذ كانوا يؤمنون بأن الدين لله ، والوطن للجميع .

وفى وصف موقع حمص الجغرافى ، يتذكر نسيب أن جبل لبنان يقع إلى جنوبى تلك المدينة ، فيصوره كمحب عاشق يسجد تحت أقدام معبودته ،

---

(١) سنناقش هذه القصة فى فصل قادم .

ويبكى أمامها فتروى دموعه ثراها ، ويتم نسيب هذه الصورة الجميلة ، مضفياً عليها من مشاعره فيقول :

وارحمتا لمتيّمٍ مصفود
يسقى الهوى من قلبه الجلمود! (١)

ثم يتحدث عن نهر العاصى ، ويشبهه بنهر الكوثر بالنسبة للمؤمنين ، وينظم أبياتاً غنائية جميلة يعبر فيها عن ظمئه الشديد لمائه ؛ ظمأ روحى ومادى فى آن واحد ، لقد وعد نفسه أن يعود إلى حمص ويرتوى بماء العاصى ولكن يبدو أن القدر لن يسمح له بتحقيق وعده. ومادامت أمنيته بعيدة المنال ، فلم لا يحقق أمله الأخير : أن يعاد إلى حمص مدثرا بأكفانه ، ويعبر عن طلب آخر عزيز على نفسه : أن يبنى قبره من حجارتها السود !

وفى قصيدة أخرى سماها « غادة العاصى » يعود بذاكرته إلى أيام صباه فى حمص ، فتلوح له فتاة شابة قد يكون رآها على ضفة العاصى فى مساء أحد أيام الخريف . لقد أحبها ، ولكنه أخفى حبه ، فهو إن ذكر أسماء غيرها من الفتيات فإنما يعنى إياها ، والآن، أصبح لا يطيق إخفاء حبه ، فلما سأله أصدقاؤه عن الفتاة التى سحرته وسلبت لبه ، أجاب :

حوريّتى لا تسألوا عنها أحـــد
أوما علمتم أنها بنت البلد ؟
من حمص مطلع لحظها الفتاك (٢)

إنه يتذكرها عندما كانت تملأ الجرة من ماء النهر ، وهى فريدة بين نساء العرب لأن أجدادها من حمص ، ويذكر قول القائلين « وحمص جمال نسوتها عجب » . وإلى جانب الجمال فقد زانها العقل والكمال ، ومرة أخرى يتذكر ديك الجن ، الشاعر الذى وقع فى حب فتاة مسيحية من حمص .

---

(١) الأرواح ص ٢٥٥ .
(٢) الأرواح ص ٢٥٧ .

لم تكن طبيعة سوريا ولبنان ومناظرها الجميلة ، هى الوحيدة التى أوحت لشعراء الرابطة بتلك الأبيات والقصائد التى عبرت عن حبهم لأوطانهم ووفائهم لعهودهم فيها . فخلال فترة إقامة نسيب فى الغرب ، أى بين عامى ١٩٠٥ و١٩٤٦ ، مرت البلاد السورية وما جاورها بأحداث مختلفة الأهمية ، ومتفاوتة الأثر .

وقد سبق أن رأينا فى الفصل الأول أن هؤلاء السوريين واللبنانيين غادروا أوطانهم وهى فى أحوال سيئة ، كانت البلاد كلها تعانى من الجهل والفقر والمرض . وكانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية فى تأخر ، والطوائف الدينية المختلفة ، وخاصة فى لبنان ، فى نزاع دائم . ولم يتوان الأتراك عن فرض الرقابة على كل أنواع التعبير . كل هذه الظروف أدت إلى فرار الكثيرين من الناس ، ومعظمهم فروا إلى العالم الجديد . ولكنهم لم ينسوا هناك بلادهم ولا أحوالها ، خاصة أنهم لم ينقطعوا عن أخبارها ، كانت الرسائل تأتى من موطنهم إلى العالم الجديد تصف الأحداث المتتالية ، وأحياناً تطلب المساعدة ، وغالباً ما تكون مساعدة مادية .

وأكثر من هذا ، نحن نعرف أن الناس فى المشرق حاولوا معارضة الحكم التركى والثورة ضده ، وأنهم لم ينجحوا فى هذا . والآن أصبح المهاجرون بعيدين عن بطش الأتراك ، على غير مقربة من عصيّهم ومشانقهم . وأصبحوا يتمتعون بالحرية والأمان ، وأصبح بإمكانهم التنفيس عما كتبوه ، والتعبير عن كراهيتهم للحكام الطغاة المجرمين . تحدث إيليا أبو ماضى ورشيد أيوب عن الأتراك وعن حكمهم الفاسد ، وخاطباهم بلهجة قاسية متحدية .

لا نجد فى أعمال نسيب المبكرة أى اهتمام بالسياسة أو بانتقاد الحكم التركى فقد كان مشغولا بالتأمل الباطنى وتحليل النفس ، يحاول حل مشكلاته المادية والروحية ، ولكن عندما وقعت الحرب العالمية الأولى ، ونالت سوريا منها نصيبها المؤلم ، لم يستطع أن يبقى على صمته ، بل انضم إلى بقية الشعراء المتحمسين وكتب قصيدة أهداها إلى المتطوعين السوريين وسماها : « نفس الشجاع » .

وفى قصيدة مضادة للأولى وإن تكن أقصر منها ، يتحدث عن نفس الجبان ، الذى يبقى فى البيت ويموت موتاً بطيئاً ذليلا .

وخلال سنوات الحرب عانت سوريا من المجاعة ، وانتشرت الأمراض فى المدن والقرى . وكتب نسيب مقطوعة مؤثرة معبرة سماها « ترنيمة السرير » أو « الأم المنكوبة » يرسم فيها صورة أم حزينة وطفل جائع . تحاول الأم أن تهدهد طفلها للنوم ، ولكنه يستمر فى صراخه ، ولا تجد شيئاً تغذيه به ، فلبنها قد جف ودمعها لم يعد ذا نفع ، فتحاول أن تغنى له حتى ينام ، ولكنها لا تذكر سوى أنشودة الصبر ، وعندما تفرغ من أغنيتها لا تصدق أن صوتها هو الذى غنى ؛ فلم تسمع سوى أنين روحها . وعلى أية حال فإنها تجاهد لتغالب ضعفها ببث الهدوء فى طفلها حتى يعاوده النوم ، وتأمل فى الله خيراً ، فتقول لطفلها :

يعود النور والرونق إذا ما الله أبقانا[1]

ومرت سنوات الحرب ، وخلّفت لسوريا الدمار والخسارة ، وبدا كل شيء فى انهيار . مما أزعج شاعرا وطنياً حساساً كنسيب عريضة ، وغلبه اليأس إلى حد أنه رأى فى هذه الحالة المتدهورة نهاية لقومه ونوماً لا قيام منه . وقصيدته « النهاية » تعبر عن سخطه أمام هذه المذلة وبلادة الشعور :

كفّنوه
وادفنوه
أسكنوه
هوة اللحد العميق
واذهبوا ، لا تندبوه ،
فهو شعب
ميت ، ليس يفيق

---

(١) الأرواح ص ٦٣ – ٦٤ .

ويمضي في نفث كلماته الغاضبة على هؤلاء الناس الذين لم تحركهم الخيانة ولا المذلّة . فلم يذرفوا سوى الدموع ! ومافائدتها ! وقد أثار غضبه أن يرى بعض من حوله من المهاجرين غير مبالين بما كان يحدث في وطنهم الأصلي ، كما لو كان أمراً غريباً عنهم . ولا عجب فهم مشغولون بأمورهم التجارية والمادية ، فيعلق على ذلك ساخراً :

ولنتاجر ، في المهاجر ،
ولنفاخر
بمرايانا الحسان
ما علينا إن قضى الشعب جميعاً .
أفلسْنا في أمان ؟[1]

إن قصيدة « النهاية » لعريضة وقصيدة « أخي » لنعيمة قد نالتا شهرة واسعة في البلاد العربية في السنوات التي تلت الحرب ، وللآن مازال الصغار والكبار يعرفون ويحفظون بعض الأبيات منهما . إن نعيمة في قصيدته « أخي » يلوم بني قومه ويؤنبهم لعدم اهتمامهم وعدم فلاحهم في أن يحققوا أي أمر من الأمور الهامة التي تساعد على تحقيق حريتهم وتقدم بلادهم .

أما نسيب ، فإن غضبه ، من بني قومه في سوريا والعالم الجديد ، يهدأ قليلا عندما يتذكر هؤلاء الشباب الذين خاضوا بشجاعتهم غمار الحرب وضحوا بحياتهم من أجل مستقبل أفضل . فكتب مقطوعة في تحية هؤلاء الشباب سماها « نخب الجنود » مجد فيها أرواحهم .

لم تكن السنوات التي تلت الحرب في سوريا والبلاد العربية سنوات هادئة فمنذ بدأ الانتداب الفرنسي يفرض نفسه على سوريا ، بدأ السوريون حركاتهم الثورية ضد مظالم الحكم الأجنبي ، واستهشد الكثيرون أو جرحوا في مواقف عديدة . وفي عام ١٩٢٦ كتب نسيب مقطوعته « موكب الجثث » التي حيا فيها الشهداء ، ثم أخذ يخاطب الفرنسيين بقسوة وبعنف ، ورأى أن حكمهم

(١) الأرواح ص ٦٥ – ٦٦ .

فى سوريا لم يكن أفضل من عصور المغول البرابرة . الذين يذكر منهم أسماء : تيمورلنك وجنكيزخان ، الذين لم تعرف لفسوتهم حدود .

وصادفت هذه الأحداث قيام الثورة العربية فى سوريا بقيادة الشريف حسين . ونقلت الصحف والرسائل أخبار البلاد إلى العالم الجديد ، مما أوحى بعدة قصائد لشعراء الرابطة القلمية.وقد كرس نسيب عدداً من مجلته « الفنون » لهذه المناسبة .

ثم تأتى المسألة الفلسطينية ، التى بدأت تتخذ دوراً خطيراً نتيجة الشعور السائد ضد الغرب ، الذى تلا إعلان وعد بلفور سنة ١٩١٧ . وظل المهاجرون العرب فى الغرب على اتصال بأحداثها وتطوراتها ، ونظم أبو ماضى عدة قصائد عن فلسطين ، كما نظم أعضاء آخرون فى الرابطة قصائد ومقطوعات عن فلسطين فى عدة مناسبات .

ومع أ ن السياسة وأمورها كانت بعيدة عن ميول نسيب عريضة ، إلا أنه لم يستطع أن يظل صامتاً إزاء هذه الأحوال المثيرة ؛ فى عام ١٩٣٨ عندما عقدت الجامعة العربية اجتماعاً فى بروكلين للتظاهر ضد وعد بلفور ، نظم نسيب قصيدة تعبر عن مشاعر المهاجرين العرب بالنسبة للكفاح فى فلسطين وذكر أنهم يتمنون التطوع للمساعدة وما يمنعهم سوى بعد الطريق ! ثم أخذ ينتقد البريطانيين لأنهم حفظوا عهدهم لليهود ، بينما خدعوا العرب بوعود كاذبة . ومن غريب الصدف أن نسيباً تنبأ فى بيتيه الأخيرين بالنهاية المحزنة :

فلسطين ، سيراً إلى المشنقة ! فلسطين ، صعداً على المحرقة !
وموتى فلسطين ! فالموت خير فداء لحرية مطلقة !

هناك دلالة واضحة هى أن شعراء الرابطة القلمية ، بالرغم من إقامتهم فى العالم الجديد ، بعيدين كل هذه الأميال عن الأحداث المضطربة ، قد ظلوا مرتبطين بموطنهم الأصلى ومهتمين بما يحدث فيه من تغيرات سياسية وشاركوا أقاربهم وأصدقاءهم كل الأحداث بما فيها من خير وشر ، وغالباً

ما تكون الأحداث سيئة . يقول أنيس المقدسى : « ومنذ إعلان الدستور التركى سنة ١٩٠٨ ، إلى الثورة العربية سنة ١٩١٦ ، إلى تأسيس المملكة العربية فى دمشق سنة ١٩١٨ ، إلى معركة ميسلون سنة ١٩٢٦ إلى الثورات الوطنية فى العراق وسوريا وفلسطين ومصر ، إلى الحرب العالمية الثانية ، إلى استقلال معظم البلدان العربية ، وكل المفاوضات والنزاعات المرتبطة بهذه الأحداث ؛ قدم أدب المهاجرين العرب ، سواء فى النثر أو الشعر ، يداً تذكر فى الدفاع عن حقوقنا وزيادة الحماس فى أرواحنا »[١] .

(١) أنيس المقدسى : الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ج ٢ ص ٧٩ .

٥

على طريق إرم

كان التفكير فى الموت نوعاً من الهروب الذى لجأ إليه شعراء الرابطة ، وخاصة نسيب : فى سبيل أن يبتعدوا عن العالم المادى المحيط بهم . وقد ذكرنا من قبل أن من أنواع الهروب عندهم التحليق إلى العالم المجهول ، وحاول كل واحد منهم أن يتخيل مكاناً بعيداً مرغوباً تتطلع إليه روحه وتسرع فى محاولة الوصول إليه . وفى محاولة وصف هذه البلاد الخيالية البعيدة ، استخدم كل من شعراء الرابطة رمزاً خاصاً به ، مع أنهم كثيراً ما استخدموا رموزاً متداولة بينهم .

سمى جبران عالمه الخاص « البلاد المحجوبة » . وفى قصيدة بهذا العنوان ينادى محبوبته أى روحه ، لتأتى معه ويتركا هذا العالم المادى الذى ليس له فيه صديق ، ولن يجد فيه صديقاً ، لأنه يعتبر نفسه نباتاً فريداً ، تختلف أزهاره عن كل الورود والشقائق ؟ وقلبه الجديد الشاب لا يستطيع أن يمتزج بقلوب الناس المتعبة القديمة . فالأفضل له أن يهرب من هذا العالم الذى قاسى فيه من المآسى والخيبة والمرض ، ولكنه تغلب على كل ذلك بالصبر .

ومن الطبيعى أن نجد جبران مازال حائراً ، شاكّاً فيما إذا كان سيصل إلى بلاده المحجوبة أم لا ، ما دام لا يعرف الطريق ، ولا يعلم من سيقوده فى هذه الرحلة . هو يخشى ألا يصل إليها مطلقاً ، بل كل ما يراه من بعيد ليس إلا سراباً ، كلما اقترب منه تضاءل واضمحل ، وفى نهاية مقطوعته يصل إلى حقيقة أن البلاد المحجوبة ليست فى الشرق ولا فى الغرب ، ولا فى الجنوب ولا فى الشمال ، ولا فى السماء ولا فى البحر ، ولا فى السهول ولا فى الجبال .

إنها لا توجد إلا فى الروح مثل الضوء والنار ، فهى موجودة فى قلبه وصدره[١].

ويسمى أبوماضى هذه الأرض الخالدة « نار القرى » وهو أيضاً يجد الطريق إليها شاقاً ، ولذلك فلا يملك سوى أمل قليل فى الوصول إليها . ولا يدرى كيف يمكنه تحقيق هذا الأمل ؛ فهو فى الحضيض ، وأمامه آلاف من الأحجبة[٢].

وقد عبّر نسيب عريضة عن هذا الإدراك لطول الطريق ومشقّته ، ولم يكن لديه سوى أمل ضئيل أيضاً فى الوصول إلى هدفه ، لأن روحه فى الحضيض » كذلك . وقد رأينا كيف عبّر عن ذلك فى شعره الذى بهذا العنوان . ولم تكن هى المرة الوحيدة ، فمنذ عام ١٩١٥ ظل يكتب أشعاراً يخاطب فيها روحه ويطلب منها أن تستيقظ وترافقه فى طريق الوصول إلى الحقيقة . ويشجع روحه ويحاول أن يهدئ مخاوفها ويمنحها الأمل[٣] .

وفى قصيدته « مناجاة » يهمس نسيب إلى روحه ويطلب منها أن تغادر جسده وتعود إلى مسكنها العلوى ، ويشرح لها الأسباب :

الناس . مَنْ هم ؟ جسومٌ ضاعت بهن النفوس
إن يرقدوا فنعيم رقادهم فى البؤوس
واحسرتا ! أنا منهم مادام جسمى اللبوس
ناموا ونفسى يقظى تهذى بذكر الشموس
ترجو انتهاء اعتقالى لكى تقضّ الخيام[٤]

وفى البيت الأخير يستخدم الشاعر هذه الصورة البدوية مشبهاً جسده بالخيمة التى ما إن يفكر الساكنون فى الرحيل ، حتى تقضّ وتنتهى .

وفى عام ١٩١٩ كتب عريضة مجموعة رباعيات تذكرنا ببعض رباعيات

---

(١) جبران : البدائع والطرائف ص ٢٩٥ .
(٢) أبو ماضى : السائح الممتاز لسنة ١٩٢٧ ص ٢٥ .
(٣) الأرواح ، ص ٥٢ ، ٦٠ و ٧٢ .
(٤) الأرواح ص ٧٦ .

الحيام ؛ يحاول فيها نسيب أن يشرب نخب نفسه ، وينسى شكوكه وكل ما يقلقه :

حياة شكّ وموت شكّ

ويأسف لفقد الأمل ويحاول أن يتجمل بالصبر ، بالرغم من كل حزنه ووحدته . ويعرف نسيب جيداً أن مرضه يكمن فى روحه ، ويتخيل أنه يأخذها إلى طبيب ويسأله العلاج . ويحاول الطبيب أن يشفى الجسم ويبعث فيه الحياة ، ولكن الشاعر يعترف فى الحال أن لا فائدة من ذلك لأن « زيته قد جف » ولأنه :

إذا خبا النور فى الدرارى فما ترى ينفع الزجاج ؟

وفى نفس المجموعة من الرباعيات يصف رحلته إلى العالم المجهول ؛ التى بدأها برفقة قلبه ، هذا القلب الضعيف الرفيق الذى ما يلبث أن يفقده على الطريق ! وما من سبيل الآن سوى أن يتبع ذلك القائد الجديد ، العقل . وعندما يلتقى بالناس يسألهم إذا كانوا يقبلونه بدون قلبه . إنهم يسخرون منه ويقولون : «هل مسّك الجنون ؟ انظر إلى كل تلك القلوب التى فُقدت على الطريق » . ولكنه غير مقتنع بهذه الصحبة الجديدة . ويذهب وحيداً مع نفسه تاركاً العقل الذى ليس له شعور ، وعالم الناس المزدحم وراءه ، ويمشى على الطريق إلى « الغاب » .

الرحيل ، الطريق إلى الحق أو الصدق ، التيه والغاب ، كل هذه الرموز وما تعنيه ، أخذت تسيطر على عقل نسيب قبل أن يبدأ الكلام بصراحة عن رحلته الخيالية إلى « إرم » البلاد المحجوبة ، التى يشتاق كثيراً إلى الوصول إليها فى يوم من الأيام عندما يصبح جسده عاجزاً وتتطهر نفسه ، ويرتفع كيانه الروحى إلى أعلى عليين .

كل هذه القصائد والرباعيات كانت مجرد مقدمة للقصيدة الصوفية التى كتبها سنة ١٩٢٥ وسماها : « على طريق إرم » ، وقد سبق لنسيب أن ذكر كلمة « إرم » فى قصيدة كتبها إلى صديقه وليم كاتسفليس ، الذى كان يزمع السفر إلى

الصين . يتحدث فيها نسيب عن طرق الكفاح المتعددة فى هذه الحياة ، وينصح صديقه أن يختار الطريق الأصعب ، لأنه يقود إلى أعلى . ويتذكر فى الحال طريقه الخيالى الذى أولع به :

خير الدروب مجاهلٌ تخفى الطريق إلى إرم
فإذا بلغت قصورها أنستك جوعك والألم

لا عجب إذن أن يقول ميخائيل نعيمة فى وصف صديقه نسيب :« إذا كنت أريد أن أصف نسيب عريضة فى كلمتين فإنى أسميه شاعر الطريق . فلم أعرف شاعراً عربيًّا أو غير عربى ، كان غزير الإنتاج ومبدعا فى وصف طريق الحياة وما يرافق مسافريه من الحنين إلى أطلال تُركت وراءهم ، أوالشوق إلى إشارات تبدو من بعيد ، ولكنها ممنوعة عنهم ، مثل شاعر « الأرواح الحائرة ». إنه يشعر أن الحياة رحلة مستمرة بدون راحة أومحطة ، وأن كل الوجود عبارة عن طريق يختفى أوله فى الجهل ويختفى آخره فى المعرفة . وهو لن يتوقف عن حث قلبه على السير إلى الأمام » [١].

يقول نسيب فى سطور قليلة قدم بها لقصيدته الصوفية « على طريق إرم » :

« جاء فى أساطير العرب أن « إرم ذات العماد » مدينة عجيبة بناها شداد ابن عاد من حجارة الذهب واللؤلؤ والجواهر ، فكانت فتنة باهرة للعيون ؛ لا يقدر القادم من بعيد أن ينظر إليها إذا واجهها فى ضوء النهار .

ثم أقفرت هذه المدينة العجيبة واختفت فى الصحراء ؛ فهى فى مكان محجوب ، عامرة بقصورها السحرية وكنوزها المباحة ، ولكن لا يمكن الاقتراب منها وقد طلبها كثيرون فهلكوا أوضلّوا وعادوا قانعين من الغنيمة بالإياب »[٢] .

وكلمة « إرم » مذكورة فى القرآن الكريم عند الحديث عن القبيلة العربية القديمة ، عاد : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد »[٣].

---

(١) ميخائيل نعيمة ، فى مجلة الآداب ، السنة الأولى ، العدد الخامس ص ٦ — ١٠ .
(٢) الأرواح ص ١٧٨ . (٣) سورة الفجر ، الآية ٧ .

ويبدو أن « إرم » كانت عاصمة قبيلة « عاد » فى جنوب الجزيرة العربية . وكانت مشهورة بأعمدتها المرتفعة ، يقال إن شداد بن عاد ، عندما سمع بالجنة أمر مهندسيه أن يبنوا له مدينة تشبهها فى جمالها وفخامتها . وبنيت المدينة ، فكانت حجارتها من الذهب والفضة ، وجدرانها مطعمة بالجواهر .. إلخ ثم حدث — كما يحدث عادة لمثل هذه المدن المسحورة — أن اختفت إرم . وماتزال قصورها وحدائقها مختفية فى مكان ما من البلاد . ومنذ ذلك الوقت خرج فى طلبها أناس كثيرون آملين أن يجدوها أو ينعموا بنظرة إلى عظمتها : ولكنهم جميعاً أخفقوا . والإنسان الوحيد الذى وصلها يوماً ما هو عبد الله بن قُلابة ، أحد صحابة النبى فى عهد معاوية ، فقد أخبر عبد الله معاوية بن أبى سفيان أن جملا من جماله ضل الطريق وأن عليه أن يلحقه ويبحث عنه ، وفى أثناء بحثه عثر على هذه المدينة العجيبة وأتى لمعاوية ببعض كنوزها [١] .

يعتقد بعض الناس أن مدينة « إرم » تقع فى مكان ما فى الجنوب الشرقى من جزيرة العرب ، فى الصحراء المسماة « الربع الخالى » . وآخرون يعتقدون أنها تعنى دمشق أو مكاناً قريباً منها . وعلى أية حال « فإن إرم » مازالت مختفية وتستعمل الكلمة كرمز لهدف الوصول إلى الحقيقة أو الصدق أو العالم المجهول ، وتعنى الكلمة أيضاً تعبيراً صوفياً يمثل الاتحاد مع الله . وكثيراً ما استخدمه الصوفيون بأسلوبى الشعر والنثر ليصفوا مفهومهم لطريق الصوفيين ووسيلة الوصول إلى الصدق أو المثال .

استخدم جبران خليل جبران رمز « إرم » بنفس طريقة نسيب أى فى وصف رحلة روحية إلى المجهول . ولكن بدلا من التعبير عن رؤياه بالشعر ، استخدم جبران النثر ، وكتب فى عام ١٩٢١ رواية مسرحية قصيرة سماها « إرم ذات العماد » . فيها ثلاث شخصيات : زين العابدين ، وهو درويش فارس ، ونجيب رحمه ، وهو كاتب لبنانى شاب ، وأمينة العلوية وهى امرأة صوفية زاهدة ، وأمينة فى الواقع هى وسيلة جبران فى التعبير عن آرائه الصوفية

---

(١) Encyclopedia of Islam Vol. II

وأفكاره ، وهى الإنسان الوحيد الذى استطاع دخول مدينة « إرم » المحجوبة ، التى تقع — كما صورها جبران — فى الربع الخالى فى البلاد السعودية .

توفى والد أمينة أثناء مرافقتها فى رحلة الحج إلى مكة ، فدفنته وأقامت بجوار قبره سبع ليال ، تتحدث إلى روحه وتسألها المعرفة عن العالم الآخر . وفى الليلة السابعة أوحى إليها أن ترحل إلى الجنوب الشرقى ، فرحلت إلى أن وصلت الربع الخالى حيث ضلت طريقها فى الصحراء ، واعتقد الناس أنها قد ماتت . وبعد خمس سنوات ظهرت أمينة فى مدينة الموصل ووقفت بين العلماء وتحدثت عن بعض الأمور السماوية . ووصفت لهم مناظر « إرم ذات العماد » ثم أخذت تتجول من مكان إلى آخر إلى أن وصلت إلى نهر العاصى حيث استقرت وأطلق عليها لقب « جنية الوادى » . وتسير حوادث الرواية التى كتبها جبران فى هذه المنطقة . ويقول جبران إن روح أمينة فى كل مكان ، لكن جسدها يتجول فى أماكن معينة . ويجعلها تجيب أسئلة نجيب عن الرحلة الروحية ومراحلها . إنها تقول : « دخلت المدينة المحجوبة بجسمى الذى هو روحى الظاهرة ، ودخلتها بروحى التى هى جسمى الخفىّ ؛ إذ أن الزهرة وعبيرها شىء واحد » وهى تقول أيضاً « الذى يرى نفسه يرى جوهر الحياة المجرّد » . وتتحدث إلى نجيب عن مصاعب الطريق ؛ الجوع ، والظمأ ، والوحدة وعدم الانتماء ، وأخيراً تقرر أن : « عمالقة العصور قد ابتنوا إرم ذات العماد مما تبلور وتشكّل من عناصر الوجود ، ولم يخفوه عن الناس ، ولكن الناس أخفوا نفوسهم عنه ، فذلك الذى لا ينير مصباحه لن يرى فى الظلام إلا الظلام » .

فى الواقع ، إن « أمينه العلوية » عند جبران تذكرنا بالمتصوفة المشهورة «رابعة العدوية» ، التى اعتادت أن تبشر بنفس المثل ، والتى عُرفت مراحل رحلتها على الطريق لدى كل المتصوفين والمهتمين بالفلسفة الإسلامية والفلسفة المسيحية . قالت رابعة : « بالحب والحب وحده يمكن لروح الإنسان أن تعود إلى أصلها السماوى وتجد هدفها العلوى بالاتحاد بالحق »[1] .

(١) Smith, M. Rabia theMystic p. 47

وبقراءة رحلة نسيب الروحية « على طريق إرم » نجد الشاعر وقافلته يمرون ببضع مراحل ، بحثاً عن الحق أو المجهول . ويصف طريقه مرحلة مرحلة ، حتى يتخيّل أنه رأى نارها من بعيد ، دون أن يصل إلى الهدف . لقد اعتبر أحد النقاد هذه الملحمة لنسيب كخريطة ، لو اتبعناها تقودنا إلى المراحل المختلفة التى مر بها الشاعر فى حيرته ، وتكشف لنا الكفاح القاسى الذى عاناه مع المجهول ، حتى يصل إلى المثال والمعرفة والسعادة الروحية . وكما ذكرنا من قبل فإن نسيباً قد استطاع أن يلمح بريق الحق يومض من بعيد ، ولكنه لم يستطع الوصول إليه ، وكان عليه أن يقنع بمناداته فى آخر ملحمته وخطابه بكلمتى « الضوء البعيد » وهذا الاسم قد استخدمه شعراء آخرون فى الرابطة كذلك ، واستعمله رشيد أيوب كعنوان قصيدة له [١] .

ومن كلمات نسيب نفهم أن قصد الرحلة هو الوصول إلى العالم المثالى :

فقُمْ بنا يا سمير نفسى نقفو الأمانى إلى الكمال

ويمكننا أن نتوقف هنا لنذكر أن نسيباً يستخدم أسلوباً من أساليب الشعر العربى فى الجاهلية وأول الإسلام حيث يدعو الشاعر رفيقاً أو اثنين ليقفا معه على الطلل الذى ارتحل عنه ساكنوه ، حيث كانت تقيم محبوبته .

تتألف ملحمة نسيب من مائتين وستة وثلاثين بيتاً ، مقسمة إلى ست مقطوعات ، أعطى لكل منها عنواناً يوضح المرحلة التى يصفها ويتبعها .

والمقطوعة الأولى مسماة : « أول الطريق » وتتكون من أربعة وأربعين بيتاً . فى الأبيات الأربعة الأولى يستعد الشاعر لبدء رحلته الخيالية ، مملوءاً بالأمل برغم الظلام الذى يحيط به . يحلم أنه قد ترك هذا العالم الملىء بالروابط وطار بعيداً ينشد الجمال . ويطلب من صديقه — رفيق روحه — أن يطير معه على جناح الأمانى خارج هذا العالم الذى نحن فيه — عالم الحدود — فربما يريان معاً طريقاً

---

(١) رشيد أيوب : أغانى الدرويش ص ١١٠ .

سماوياً يسيران عليه ولا يرجعان . وهناك يأمل أن يحصل على كل ما قد حرمه فى هذا العالم الأرضى (١) .

إن نسيب عريضة يعفينا من السؤال عما إذا كان يريد أن يترك هذا العالم بروحه وجسده أم مع روحه فقط إنه يجيب عن السؤال بنفسه مخاطباً رفيق روحه :

قُمْ واترك الجسم حيث يبلى فالموت خير من الجمود (٢)

مع أن الشاعر يعترف فى الأبيات التالية أن هذا العالم ملىء بالمسرات وبالجمال ، وأنه لو شاء الحصول على شىء لفعل .. ولكن روحه تهوى الخيال الذى ياوح لها فى السماء (٣). ودائماً نجد نسيباً يهمل مطالب الجسد ويفضل الرحيل مع روحه ، التى يتحدث باسمها قائلا :

أحنُّ شوقاً إلى ديارٍ رأيت فيها سنى الجمال

وليس غريباً بعد هذا ، أن يذكر نسيب مرة أخرى هذه الصورة لهبوط الروح ؛ التى تصادفنا كثيراً فى شعره وأشعار زملائه فى الرابطة القلمية . إنها تساعد على توضيح سبب الرحلة المقصودة . والروح ما زالت تحن إلى العودة إلى المكان البعيد الذى جاءت منه ، إنها دائماً فى اعتقال ، طالما هى تسكن فى ظلام الجسد المادى (٤):

أُهبطتُ منها إلى قرارٍ أمستْ به الروح فى اعتقال
أهيم فى الليل مثل أعمى جاع ولا يحسن السؤال
يهزنى فى الدجى حنين إلى الذى مرّ من وصال

والظلام رمز للجسد ، كما هو معروف فى النظرية الصوفية التى تسمى « حكمة الإشراق » بينما النور عندهم رمز لله وعالم الأرواح . والقصد من هذه

(١) يقصد هذا العالم المادى . (٢) الأرواح ص ١٧٩ .
(٣) السماء تعنى لنسيب العالم المثالى الذى قضى عمره يبحث عنه .
(٤) الأرواح ص ١٧٩ — ١٨٠ .

الفلسفة هو كسب الاتحاد مع الله ، بمعنى الوصول إلى حالة من السعادة والرؤيا الواضحة حيث الحق لا ينال بعملية استنتاج ، بل يعرف بالبديهة[١] .

وهنا نلتقى مرة أخرى مع نسيب عريضة الشاعر الحائر ؛ مع روحه الهائمة ، لا يدرى ماذا يفعل ، ولا أين يذهب . يسأل رفيقه أن يستلمح البرق ، فإنه سيريهم أول الطريق . والبرق عند نسيب ، يمثل ناراً أوقدها ركب من المسافرين الذين سبقوهم على الطريق قبل آلاف السنين :

ألا ترى البرق نار ركبٍ تقدّمونا على الطريق ؟

وواضح أن الشاعر يتبع رؤيا خلقتها مقدرة خياله ، وأكثر من هذا ، فإنه لن يصل إلى هذه الرؤيا حتى تتحرر نفسه من عقالها ، وهو رمز العالم الأرضى وحاجات الجسم المادية [٢].

ووسيلته الظاهرة فى الوصول إلى هذه المرحلة الروحية هى « الفناء » التى هى نظرية صوفية قديمة كثيراً ما درسها المتصوفون واهتموا بها . والفناء هو الطريق الوحيد الذى يوصل الشاعر إلى رؤياه الروحية ؛ فكما تحجب الغيوم عن عيوننا وجه السماء ، كذلك حاجات هذا العالم المادى تحجب عن أرواحنا العالم الميتافيزيقى أو الروحى . فهناك بون شاسع إذن بين الروح والجسد أو بين الروح والقلب . فهل سيرحل مع روحه فقط ، أم سيصحب قلبه أيضاً ؟ إنه يعلم أن روحه وقلبه متعاديان ولن يطيقا السير معاً . ولكنا عرفنا أن نسيباً كان إلى جانب القلب أحياناً وهو يشفق على ضعفه . ولذلك فإنه يبحث عن قلبه حتى يجده ويأخذه معه على الطريق . ومع هذا ، فإنه مازال يقول :

ياويح قلبى وويح نفسى من صحبة لم تكن تُلائم

وعندما تيقّن من صعوبة الطريق وعدم وجود الصحبة الطيبة ، نجده يغير تفكيره فيستسلم للشكوك ، ويطلب من رفيقه الحزين أن يبقى معه على الأرض ويقنع معه بالخيال :

---

(١) Ecyclopedia of Islam, Vol. II

(٢) يسمى الشاعر هذه الحياة عقالا ، لأنها تقف بينه وبين هذه الرؤيا الجميلة المثالية ، التى فيها الجمال والخير الحقيقى .

فعدْ بنا يا سمير حزنى نقنع فى الأرض بالخيال!

والمقطوعة الثانية بعنوان : « القلوب على الدروب » وتتألف من ثلاثين بيتاً . يبدو أن القافلة قد قطعت شوطاً من الصحراء ، ولكن نهاية الطريق مازالت بعيدة ؛ فكلهم متعبون وقلوبهم مرهقة ، لأن طريق الحياة شاق وطويل . ويطلب نسيب من حداة القلوب أن يرحموها ويتوقفوا قليلا عن المسير . الظلام مخيم على الكون وليس هناك بصيص من نور . والشاعر لا يستطيع الصبر ، ويسأل الفجر هل سيطلع أم لا ، ومتى ستنتهى الطريق . مسكينة تلك القلوب فقد تحمّلت الكثير :

خيّم الليل فوق ركبٍ أثقلتهم رحال حُبّ
ليس يدرون أىّ دربٍ ينتهى باللقا ، وقلبى
فى مطايا الركوب
كاد شوقاً يذوب

ويمكن للقارئ أن يلحظ بسهولة الكثير من الصور البدوية فى هذه المقطوعة : فى البيت الأول يشبّه الشاعر القلوب بالجمال التى تسير فى قافلة يسوقها الحداة بأصوات أغانيهم . ومادامت القلوب جمالا فى هذه الصورة ، فليس غريباً على الشاعر أن يستخدم كلمة « رحال » فى الصورة الثانية ، ويقصد بها الأحمال التى على ظهور الإبل : فالقلوب مُتعبة من أثقال الحب

وليست القلوب فقط هى التى تعبتْ ، وإنما عينا الشاعر قد كلّتا وأصبحتا لا تريان من بعيد ، فيصفهما فى صورة بدوية أخرى :

إنّ طرفى غدا كليلا طال ما قد سقى الطلولا
منه دمعٌ سكوبٌ (١)
ماله من نضوبْ

ومادام الشاعر يتحدث عن القافلة ، والإبل وحداة الإبل ، فإنه يلتزم بتكملة الصورة باستخدام بقية الصور البدوية حتى يُبعد عن حديثه الغموض

(١) الأرواح ص ١٨٢ .

ويجعله واضح المعانى . ومن هنا فإن الأجراس التى حول أعناق الإبل ترن ، وأصوات الإبل هى أصوات أرواحهم التى تئنّ ضجراً وتعباً ، والصدى الذى تردده الصحراء الواسعة هو حنين نفوسهم وقلوبهم .

وفى نهاية هذه المقطوعة يطرد الشاعر التعب واليأس ويشجع القلوب على المسير برغم الرمال الكثيفة والقيود المعوّقة ، إن الريح الجنوبية ستريهم الطريق :

لا تهمنّك الرمالُ ! لا يعيقنّك العقالُ !
قد سرى قبلك الجمالُ معه النورُ والكمال
فاسرعى ، ياقلوبْ
واهتدى بالطيوبْ(١)

المقطوعة الثالثة هى أقصر المقطوعات واسمها « الطلل الأخير » وعدد أبياتها ثمانية فقط . لقد قطعت القافلة الصحراء ووصلت هذا الطلل الأخير الذى يتطلّع بأمل وترقّب ، كما لو كان يريد أن يسأل الشاعر سؤالا معيناً . والشاعر حائر فى الأمر ، فعهده بالأطلال أنها المسئولة لا السائلة عن الذين غادروها ، ولكن هذه المرة ، الطلل نفسه يسأل :

نظرتَ إلىّ تسألنى بطرفٍ ماؤه الأمل
وعهدى الركب يسأل إن أتاك عن الألى رحلوا(٢)

وهنا يستخدم نسيب رمزاً صوفيًّا ويتحدث عن المحبين الذين مرّوا قبله بهذا الطلل وأضاءوا له الطريق . لقد حلم الشاعر بهم ، وهو يحاول أن يتبع خطواتهم ولكنه لا يصل .

المقطوعة الرابعة بعنوان « فى القفر الأعظم » وفيها يضحّى بقلبه آملا أن يأكل منه ضيوف القبر الجياع . ولكن ، لخيبة أمله ، لا يجىء أحد ولا يجيب أحد غير الصدى فى الفضاء . وضاعت وليمة قلبه بين الحصى والتراب ، وظهر نسر وحيد ولكنه روّع بصوت انتحاب الشاعر فطار ، وهنا صرخ الشاعر :

---

(١) الأرواح ص ١٨٤ .
(٢) الأرواح ص ١٨٥ .

ويحى ! سيبقى فؤادى للدود أو للذئـــاب

وكما هو متوقع ، يسير الشاعر الآن وحده ، يحمل صليبه فوق ظهره ، وما من رفيق سوى روحه أو نفسه . وكالعادة تتطلع روحه إلى شيء وراء الحقيقة ، فيحثّها على المسير ، حتى لو اختارت الطريق الخطأ ، فليس هناك من فضل لمَنْ يسير على الطريق الأمين ، وعلى أية حال فالسير خير من الوقوف والتحير ؛ ويخاطب نفسه بقوله :

وأنت ظعنى وحملى وقائـــدى ودليلى
فإحدى لذاتك نفسى تسمع نفوس الطلول
عسى يجيبك منها رجع الصدى بالمثيل
فيسمع القفر صوتاً من بعد صمتٍ طويل[1]

وتلوح للشاعر إشراقة من أمل عندما يرى نور الفجر ؛ فالفجر يهديه إلى طريق الغروب ، والغروب يهدى إلى الشروق . وبعد ذلك يصبح الكل عنده سيان ، سواء أكملت روحه المسير أم وقفت ! مازال حائراً لا يرشده شيء . وما فائدة المسير أو حتى الطيران مادام هائماً فى تيهٍ لا ينتهى :

إن سرت أو طرت إنّا باقون فى تيه قفر
فاستمهلى السير حيناً وخفّفى حمل ظهـــرى
قفى لنرقـــب آلاً يلوح فى قفر صدرى

ولم يبق له سوى أمل أخير فى هذه الصحراء الواسعة ؛ يجب أن يلمح وميض سراب يلوح له من بعيد . ويبدو كما لو كان رآه ووصل إلى مياهه الموعودة . ويقف أمامه ظانّاً أنه قد حقق بغيته ، ويتخيل أنه يرى فيه حديقة كرياض الجنة . ولكن هذه كلها صور من نسج خياله ، وليس أمامه إلا أن يعود من حيث أتى :

وعدتُ للقفر وحـــدى أنوء تحت صليبى ...

---

(١) الأرواح ص ١٨٧ .

تبدأ الرحلة الحقيقية فى الواقع فى المقطوعة الخامسة التى سماها « القيروان » ويبدؤها بأغنية قصيرة من أربعة أبيات :

على طريق الجنونِ
بين المنى والمنونِ
حيال وادى السكونِ
وقفت أجمع ركبى

ثم يعطى قائمة بكل هؤلاء الذين يكونون قافلته والذين سيصحبونه فى هذا الطريق الشاق :

قد كان فى الركب قلبى ومهجتى وهوايـــــا
والعقل حامى السرايـا والشوق زاجى المطايـا
وفى الهوادج حلمى ورغبتى والطوايـــــا
بنات صدرى وشعرى والذكريات الخطايـا
وساحرات الأمـانى وعائلات الخطايـــا

والآن ، وقد اكتملت القافلة ، يمكنهم جميعاً أن يبدأوا الرحلة ، التى ستكون طويلة وصعبة ، والتى سيحتاجون فيها إلى مرشد قدير يدلهم على الطريق .

وهذه المقطوعة تشتمل على ست مراحل . وفى كل مرحلة من هذه المراحل يلتقى الشاعر وجماعته بمحن مختلفة ويمرون بصعوبات خفية ومتعددة .

وفى المرحلة الأولى يتطوع القلب ليكون قائداً للركب ، ويتبعه الجميع فى التلال والوديان ، ولكن لسوء الحظ ، يثبت القلب أنه دليل أنانى وجاهل :

القلب يقفو هـواه ونحن إثر الفـؤاد
لله درّ فـــؤادٍ يهدى وليس بهاد

فالقلب ليس قائداً جيداً ، فهو يجشمهم المشاق ، ويقودهم فى كل طريق إلا طريق الرشاد :

كم قادنا لكمينٍ

وساقنا لعريـــن
وزجّنا فى أتون
من نار وجد وحبّ [١]

وأمام إخفاق القلب كان عليهم ن يفتشوا عن قائد آخر قبل تكملة الرحلة . ويظهر العقل فى الصورة ، ونراه ينصح المجموعة ألا يتبعوا ذلك القلب المريض المضلل ، ويرجوهم أن يقفوا قليلا للراحة ثم يتبعوه كدليل جديد لهم :

قفوا بنا واستريحوا ثم اتبعونى دليـــلا

ويشتم القلب العقل ، فيجرد العقل سيف الصواب ، ويطعن القلب طعنة نجلاء ، يموت القلب على إثرها وتتحقق القيادة للعقل الذى يثبت أنه قائد مطاع مهيب ، ولكنه سرعان ما يقسو ويبدأ فى تعذيب جميع أفراد القافلة . إنه يمنع عنهم الزاد والشراب ، ويبعد عن جفونهم النوم .

وتجتاز القافلة بحار الرمال الواسعة ، ويرون السراب من بعيد ، وهم مازالوا عطاشاً عرضة للظنون والشكوك ، وفى منتهى الحيرة .

يحاول الشاعر هنا أن يثبت أنه لا القلب ولا العقل قد نجح فى الاهتداء إلى الطريق المؤدى إلى الحقيقة ، فكلاهما دليل غير لائق . والحياة بإرشادهما لا توصل إلى لبّ اليقين [٢].

أما المرحلة الثالثة فى هذه المقطوعة فهى مرحلة هادئة يغنى فيها الشاعر من جديد :

على طريق الجنون
بين المنى والمنون
حيال وادى السكون
وقفت أجمع ركبى

وبالفعل ، يجتمع أفراد القافلة من جديد ويحاول الشاعر أن يهدئ أرواحهم

---

(١) الأرواح ص ١٩٠ .
(٢) الأرواح ص ١٩٢ .

المروعة بالصبر ، مؤملا إياهم بالوصول قريباً إلى الذرى ، حيث يقتربون من الله . ويأمل أن يصلوا إلى لب الحقيقة ، ويروا نور العدل ، ويشربوا من ينابيع تجرى بأنهار من المحبة[1] .

ولكن ، سرعان ما تظهر المصاعب غير المتوقعة ، وذلك عندما يبدأ بعض أفراد القافلة بالانسحاب مبدين بعض الأعذار لعدم قدرتهم على المسير ، أفكاره القلقة الحبيسة فى صدره اعتذرت بأنها مازالت صغيرة لا تستطيع تسلق الصخور . وأمانيه قالت :

. . . « دعنا فإنّا حفايا »
وأخطاؤه قالت . . . « نحن عرايـــا »
« لا يقرب النور منـــا فالنّور يُبدى الخفايا »

ويعود الجميع نحو التلال والوديان ، باحثين عن قبر القلب الصريع .

وفى المرحلة السادسة والأخيرة نجد الشاعر وقد تُرك وحده ، إنه يبدو خائفاً ويحاول مناداة قلبه وعقله وما من مجيب . وكالعادة ، يسير نسيب وحده ورفيقته الوحيدة هى نفسه ويسير الاثنان بصمت على طريق الجنون ، آملين أن يريا فى النهاية ، وجه الله ، ويتحدث إلى حزنه ، باندهاش وبنغمة مضطربة نوعاً :

حزنى ، لماذا تغنّى ؟ أسرّك اليـــوم ثُكلى
أما علمتَ بأنـــى فقدتُ قلبى وعقلى

هذه هى المراحل الست فى المقطوعة الخامسة التى وصف فيها نسيب رحلته بتفصيل . وتأتى بعد ذلك المقطوعة الأخيرة وعنوانها « نار إرم » ويصف فيها نهاية رحلته .

يتظاهر الشاعر فى المقطوعة الأخيرة بأنه يرى وميض برق يلوح من وراء الحدود . ويدعو رفيقه ليشاهده معه ، فإنها نار الخلود ، وأخيراً عرف نسيب

---

(١) الأرواح ص ١٩٤ .

الطريق التى ليست إلا : الطريق إلى القبر أو كما سماها هو « درب اللحود » حيث « تحل القيود » ويستمر الشاعر فى حديثه فيقرر أنها :

تلك نـــار القـــرى والجيـــاع الـــورى
مَــــــنْ إليها سرى ما أراه يعـــود
بل سيغدو الوقود

ويتذكر هنا الشاعر تلك العادة العربية القديمة حيث تُشعَل النار فوق التلال لتجذب المارين والغرباء وترشدهم إلى الخيام ، حيث تُقدم لهم الضيافة . ولكن الشىء الغريب هنا أن الذين يقتربون من نار نسيب لن يعودوا أدراجهم ، فإنهم سيصبحون وقوداً لها . ومع هذا فمازال يحث رفيقه على المسير نحو تلك النار ، فقد يعوّض هناك عن ظلام الحضيض وشقاء الوجود :

نحو ذاك الوميضْ سِرْ بنـــا نستعيض
عن ظلام الحضيض وشقاء الوجـــودْ
بسناء الوعودْ

وأخيراً ، يخاطب الضوء البعيد :

إيه ضوئى البعيـــد لُحْ ولُحْ ما تـــريد
ليس طرفى يحيـــد عنك حتى يعـــود
لتراب ودود
لُحْ ولُحْ فى الفضاء ! قد سمعت النـــداءْ
ودليلى الرجـــاء فعساه يقـــود
ظامئاً للورودْ

يقول « حبيب إبراهيم كاتبه » فى مقدمته لديوان الأرواح الحائرة :

« ولكننى لا أظن أن هذه المقدمة الوجيزة تفى بالغرض الذى نرمى إليه إذا لمَ نعُجْ ولو إلماماً بملحمة عريضة الصوفية التى أسماها « على طريق إرم » وضمنها من المعانى السامية الدقيقة ما يحمل القارئ على قراءتها مرة بعد أخرى

ليستجلى سر جمالها . وقد نحا الشاعر فيها طريقة الصوفيين فى وصف مقاماتهم ورحلاتهم من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، فهى تذكرنا بقصيدة « منطق الطير » لفريد الدين العطار كما نعلمها عن الترجمة الإنجليزية عن الأصل الفارسى لإدوارد فتزجيرالد مترجم رباعيات عمر الخيام المشهورة . على أن الفرق بين القصيدتين أن قصيدة فريد الدين العطار تشرح لنا طرفاً من فلسفة الصوفيين وتشتمل على كثير من حكمهم ، وقصيدة عريضة درس دقيق فى تنازع عوامل النفس والحس والعقل ، فرحلة عريضة رحلة سيكلولوجية ورحلة فريد الدين العطار روحية فلسفية . وفى الأولى كثير من الشك والحيرة ، وفى الأخيرة يقين ثابت وعقيدة راسخة »[1] .

وبعد أن حللنا ملحمة نسيب الصوفية . يمكننا الآن أن نهتدى بكلمات الناقد حبيب كاتبه ، ونرجع بأصل هذه الرحلة الروحية إلى مصادر أخرى سواء فى التاريخ أو فى الأدب .

لقد كانت أول رحلة روحية من هذا النوع فى الإسلام هى تلك المتعلقة بحياة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) والتى عرفت باسم « المعراج » وهذه مقرونة فى العادة بالرحلة الليلية إلى بيت المقدس والمعروفة باسم « الإسراء » ، وهاتان الحادثتان كثيراً ما ذُكرتا فى كتب « الحديث » وفى إحدى تلك الروايات يحدث المعراج بعد تطهير القلب مباشرة . وقد اتخذت حادثة معراج الرسول كنموذج لوصف رحلة الروح إلى عرش الحاكم السماوى . وبالنسبة للصوفيين ، هى ، من لصعود الروح من روابط الجسد وقيوده إلى أعالى المعرفة الصوفية .

وهذه الرحلة إلى العالم السماوى ، أو إلى عالم المثُل ، قد شغلت تفكير كثير من الكتاب والشعراء منذ وفاة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى هذا اليوم . وحتى هؤلاء الصوفيون المسلمون الذين لم يكتبوا رحلة صوفية كاملة ، كما فعل غيرهم ، قد رجعوا إليها أو إلى طريقتها فى كتاباتهم وأشعارهم ، يذكرها ابن العربى فى كتابه « كتاب الإسراء إلى مقام الأسرى » وكذلك فى فتوحاته .

---

(١) الأرواح – المقدمة ص ٥ – ٦ .

إنه يجعل المؤمن والفيلسوف يقومان بالرحلة معاً ، ولكن الفيلسوف يصل فقط إلى السماء السابعة ، بينما لا يخفى سرّ عن المسلم التقى المؤمن . كما أن « رسالة الغفران » لأبى العلاء المعرى تحذو حذو حوادث المعراج ، ولكن بصورة فكهة . وقد امتدّ تأثير هذه الحادثة الإسلامية حتى العصور الوسطى فى الدين المسيحى ، ومعروف أنها أثرت فى « الكوميديا الإلهية » لدانتى [١] .

والواقع أن القصيدة التى ألفها الشاعر والكاتب الفارسى المتصوف فريد الدين العطار ، تشبه إلى حد كبير قصيدة نسيب . إن قصيدة « منطق الطير » أو « برلمان الطيور » كما سماها فتزجرالد ، عبارة عن قصيدة رمزية تتألف من أكثر من أربعة آلاف بيت . وموضوعها هو رحلة الطيور وراء الطائر الأسطورى المعروف باسم Simurgh « السيمرغ » والطيور هنا بمثابة الحجاج الصوفيين ، والسيمرغ بمثابة الإله أو الحقيقة the truth أو كما يقول المستشرق المعروف البروفسور آربرى « القصة ترمز إلى رحلة أرواح البشر وراء الاتحاد بالله » [٢] .

ومن أبيات فتزجرالد التالية يتبين لنا أن الهدهد تميز ببلوغ الهدف دون بقية الطير .

Up rose the Tajidar the Wise;
The mystic mark upon whose Bosom show'd
That he alone of all the Birds the ROAD
Had travelled, and the Crown upon his head
Had reached the Goal.

« ونهض الهدهد الحكيم ، والعلامة الصوفية على صدره تبين أنه هو وحده دون كل الطيور قد سافر على الطريق . والتاج على رأسه يبين أنه قد وصل إلى الهدف » .

ثم يتحدث فتزاجرالد عن الطريق ، فيقول :

The Royal road is not for all to tread,

---

(١) Encyclopaedia of Islam, Vol. III

(٢) A.J. Arberry : Classical Persian Literature

Nor is the Royal Palace for the Rout,
Who, even if they reach it, are shut out.

« ليس للكل أن يخطو فى الطريق الملكى ،

ولا القصر الملكى مباح للثوار .. الذين حتى لو وصلوا إليه « فلن يسمح لهم بدخوله » .

وحين تمّ لمجموعة الطيور اختيار قائدهم طائر الـ Hoopoe أى « الهدهد » بدأ يحكى لهم عن الطريق والرحلة الطويلة التى يجب عليهم قطعها فى سبيل الوصول إلى السيمرغ ولكن ، ما يكاد يبدأ العزم على السفر حتى بدأت الطيور جميعها فى الاعتذار ، وأعذارها تشبه أعذار الناس لعدم تتبعهم أشياء الروح . ولكن الهدهد العاقل يجيب على اعتذاراتها شارحاً إجاباته بسلسلة من الحوادث . والبقية الباقية من الطيور تكمل رحلتها ويمر على التوالى بالوديان السبعة وهى : (الطلب) و (الاستغناء) و (العشق) و (المعرفة) و (التوحيد) و (الحيرة) و (الفقر والغناء) ، وأخيراً ، بعد أن تبرأ الطيور من الأنانية وتتطهر من التجارب ، تلتقى بالسيمرغ ، وعندما تجده فإنها تجد نفسها . وهؤلاء الطيور الثلاثون (si-murgh) من العالم الخارجى يتأملون وجه السيمرغ فى العالم الداخلى ، وهنا يلتقى نسيب عريضة بفريد الدين العطار فى أن الاتحاد قد تم بالفناء فى الله ، وهذه نظرية صوفية معروفة .

وقال السيمرغ لجماعة الطيور : « إن شمس ملكى عبارة عن مرآة ، والذى يرى نفسه فيها يرى روحه وجسده » . والعطار كان يقول : « إن النفس (بمعنى ذلك الجزء العلوى من الإنسان الذى يشتاق للتطهر) قد وُجدت قبل الجسد وهى محبوسة فيه كما يحبس الطير فى القفص . والحياة الإنسانية رحلة تتكون من عدة مراحل ، والساعى وراء الله مسافر ، يجب عليه بذل الجهود

---

(١) سى = ثلاثين ، مرغ = طائر .

للتغلب على ضعفه وأخطائه ، والحصول على المعرفة الحقة والفهم الصحيح[١] ونحن نشعر أن نسيباً كان يتبع خطوات العطار فى البحث عن الحقيقة ، أو على الأقل، فإن آراءه قد تشابهت مع آراء الشاعر الفارسى ، كما لو كانا يعملان معاً فى شركة واحدة . فنحن نلاحظ الأسلوب نفسه فى القصيدتين وسبب الرحلة فيهما البحث عن الحقيقة والوصول إلى الكمال . والكمال عند نسيب يسمى إرم وعند العطار هو السيمرغ (Si murgh) . وكلا الشاعرين يؤكد أن الحق يوجد داخل الشخص نفسه . وفى كلتا الرحلتين نجد أوصافاً مشتركة للطريق والمسافرين ، الذين — فى كلتا الحالتين أيضاً يصيبهم التعب ويحاولون التخلّف .

وأكثر من هذا ، نجد فى الأدب الفارسى المثنوى لجلال الدين الرومى وأغنيات حافظ الشيرازى فيها الكثير من الآراء الصوفية المشابهة والمغامرات الروحية على طريق الحقيقة .

وفى الأدب العربى الكلاسيكى ، هناك أكثر من ملحمة صوفية من هذا النوع . فقصيدة ابن الفارض الصوفية المشهورة والمعروفة بعنوان : نظم السلوك أو التائية الكبرى ، تصور لنا عدة مراحل فى رحلته الروحية وراء الاتحاد بالله . وهناك تلميذ صوفى مشهور فى ذلك الوقت هو عبد الغنى النابلسى الذى كتب تعليقاً حسناً على تائية ابن الفارض ووضح الكثير من الآراء الصوفية . وللنابلسى ديوان شعرى مملوء بالأمور الروحية . ولعل من المفيد هنا أن نذكر أن نسيب عريضة وزملاءه فى الرابطة القلمية كانوا من المعجبين بابن الفارض والمتحمسين له ولآرائه . وقد رسم جبران صورة خيالية لابن الفارض وكتب بضعة أسطر فى مدح آرائه وأفكاره . وقد نظم رشيد أيوب تائية قصيرة ، ونظم نسيب عريضة نفسه تائيه أخرى سماها « ليل الشعراء » كما نظم بضعة أبيات فى مدح[٢] ابن الفارض وآرائه .

---

(١) S.C. Nott : Transl. of the Conference of the Birds.

(٢) الأرواح ص ٣٦ — ٣٧ .

وإذا تركنا بلاد المشرق واتجهنا إلى الأدب الغربى باحثين فيه عن هذا الاتجاه الصوفى ، فإننا نلتقى مرة أخرى بالكوميديا الإلهية لدانتى التى اتخذت لها أيضاً طريق الرحلة الروحية ، التى قادته فى النهاية إلى السماء العليا Supreme heaven أو المقعد الإلهى ، حيث مُنح الشاعر هناك فهم جميع الألغاز وهو الهدف النهائى للفلسفة الإلهية الصوفية [١] .

ومن أكبر الرحلات الرمزية الصوفية فى الأدب الإنجليزى تلك المسماة « رحلة الحاج » "The Pilgrin's Progress" « وهذه أيضاً قد اتخذت نفس الأسلوب ونفس الهدف ، وهى كما يقول عنها مؤلفها جون بانيان (John Bunyan) « رحلة القديسين : أو سفرهم فى سبيل الوصول إلى الحقيقة . إنها سترشدك إلى الأرض المقدسة »[٢] وإنا لنشعر هنا كما لو كانت الكلمات التالية التى تصف رحلة بانيان يمكن تطبيقها على رحلة نسيب والصعوبات التى قابلها فى سبيل الوصول إلى هدفه الأسمى : « إن رحلة الحاج ، تعلمنا أن الرجل الذى يعيش عيشة كاملة هو رجل على الطريق ، يتعثر ولكنه يلتقط أنفاسه من جديد ، هو دائماً هناك ودائماً فى كل مكان ، لأن نظرته دائما معلقة بآفاق بعيدة ممتدة إلى الأبد »[٣].

وفى قصيدة الشاعر الإنجليزى شللى Shelley المسماة « ثورة الإسلام (Revolt of Islam) . أو كما سميت من قبل Laon and Cythna ، توجد نفس الطريقة فى محاولة الوصول إلى الكمال . ومن كلمات شللى : « هى لوحات متتابعة تصور نمو العقل الفردى وتقدمه وجهاده نحو الامتياز »[٤] .

وفى أمريكا نفسها كان الشاعر المعروف والت وتمان Walt Whitman مثلا دائماً للأدباء الشبان هناك وفيما وراء البحار .وفى سيرته الذاتية الواسعة ،

---

(١) Encyclopaedia Britannica Vol. 7 p. 39

(٢) The Pilgrim's Progress, Author's Apology P.A.

(٣) Henri A. Talon : John Bunyan p. 24

(٤) Shelley's Works, edited by H.B. Forman, Vol. 1 p. 86

التى كتبها بالشعر الحر وسماها « أوراق العشب » (Leaves of grass) قاد الطريق أمام الشعراء المحدثين ليحرروا أنفسهم من قيود القافية والوزن . وقد تبع خطاه بعض شعراء المهجر وشعراء الرابطة بصورة خاصة محاولين نظم مقطوعات من الشعر الحر ، وقد كان زعيمهم فى هذه الناحية أمين الريحانى الذى لم يكن عضواً فى الرابطة ، ثم خلفه جبران وبقية زملائه . ونجد أن قصيدة والت وتمان المسماة « أغنية نفسى » (Song of myself) توصف بأنها تتبع الطريق الصوفى ، خطوة خطوة . وتلك الخطوات نجدها كالآتى :

١ — يقظة النفس The awakening of self ٢ — تطهير النفس The purification of self ٣ — التنوير Illumination ٤ — ليل النفس المظلم The dark night of the soul ٥ — الاتحاد Union[1].

وهذه الخطوات مشابهة للخطوات المتبعة من قبل معظم الكتاب والشعراء الصوفيين .

وعندما نحاول إحصاء التأثيرات التى كونت أسس تفكير نسيب وتأملاته فى طريق الصوفيين والرحلة إلى الكمال ، يجب ألا ننسى ذلك الدور الهام الذى لعبه الأدب الروسى الذى كان نسيب من المعجبين به . لقد تعلم اللغة الروسية فى المدرسة الابتدائية فى حمص ، ثم درسها لمدة أربع سنوات أخرى فى مدرسة الناصرة . وواضح أنه فى الوقت الذى غادر فيه بلاده إلى أمريكا كان قادراً على قراءة معظم الأعمال الهامة من الشعر والنثر الروسيين مما كان معروفاً فى جيله . ولا يمكن لأحد أن ينكر التأثيرات الروسية على كتاباته بوجه عام . وهذا ظاهر من ترجماته العديدة من الأدب الروسى التى نشرت فى أعداد مجلته « الفنون » ومن بين الشعراء الروسيين الذين عرفهم ، أحب نسيب الشاعر سولوغوب Sologub ، لقد ترجم إلى العربية شعره المسمى « الصمت » Silentium . وكان سولوغوب مثل عريضة يؤمن

---

(١) Miller, James E. (Jr.) : A Critical yiude to Leaves of Grass.

بالثنائية وأنه : « لا شيء يمكن أن يحدث التحسين فى هذا العالم ، والطريقة الوحيدة هى أن يهرب الإنسان إلى عالم من الأحلام والأوهام التى يمكن أن يخلقها لنفسه فى الخيال والفن »[١] وقبل سولوغوب نجد هناك لرمنتوف Lermontov بروحه الكئيبة ولديه الكثير مما لدى عريضة . لقد كتب قصيدة سماها «الملاك» (The Angel) سنة ١٨٣٢ قيل عنها : « إنها رؤيا واضحة للفردوس الذى هو حقيقى ولكنه بعيد عن تحصيل الإنسان ؛ وتعطى القصيدة رؤيا صوفية للكمال والهدوء »[٢]. والشاعر الثالث الذى قد يكون له تأثير فى إنتاج نسيب هوتيوتشيف Tiutchev فقد آمن هو الآخر بالفناء ، والاتحاد بين الروح والجسم .

وفى الأدب العربى المعاصر نجد أن إرم مازالت تجذب بعض الكتاب والفلاسفة . ومن بين الكتب التى صدرت فى هذا الموضوع كتاب لنجيب أمين نخلة سماه « ذات العماد » وهو عبارة عن رحلة خيالية نحو البلاد المحجوبة التى تعنى الفردوس بالنسبة للمؤلف . ويتبع فى كتابتها خطى أبى العلاء المعرى حين يلتقى بأصناف متعددة من الناس على الطريق ، ويبحث معهم مسائل مختلفة ذات طبيعة لغوية أو أدبية . وطبع هذا الكتاب فى بيروت سنة ١٩٥٧ .

وقبل ختام هذا الفصل نود الرجوع إلى ما كتبه الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد يوسف نجم بعد دراستهما أحوال نسيب النفسية والفلسفية ، ومقارنته ببعض زملائه فى الرابطة القلمية . فى الفصل الذى أسمياه « عودة الثنائية » لاحظا أن : الحياة عند أبى ماضى تتكون من مرحلتين ؛ مرحلة القلب ومرحلة العقل ، ثم حالة الحنين إلى الماضى . وفى رأى نعيمة يأتى القلب أولا ثم تحدث أزمة نفسية يسببها العقل ، وأخيراً يعود القلب ليقود سفينة الحياة إلى النهاية .

وبالنسبة لنسيب عريضة ، الحياة تقودها ثلاث قوى : القلب ، والعقل ، والروح .. ومثل زميليه السابقين أفسح نسيب الطريق لقلبه ليقود حياته ،

---

(١) W.E. Harkins : Dictionary of Russian Literature, p. 380.

(٢) Ibid., p. 200

ولكن سرعان ما يصبح القلب متعباً وغير قادر . وهنا ينشأ النزاع عندما يظهر العقل ويقهر القلب وينتصر عليه . ولكن العقل يثبت أنه هو الآخر غير قادر فسرعان ما تمزقه الشكوك وأخيراً تغلبه نهائياً . ولم يبق أمام نسيب إلا أن يمتسك بالقائد الجديد وهو النفس أو الروح وهى صديقته المفضلة ورفيقته دائماً .

٦

احتضار أبي فراس

هذا عنوان قصيدة تمثيلية كتبها نسيب عريضة سنة ١٩٢٧ يصف فيها المنظر الأخير من المعركة التي قتل فيها أبو فراس . ويتضح لنا من الوقائع التاريخية أن هذه المعركة كان اسمها « صلد » نسبة إلى مكان معروف بهذا الاسم بالقرب من مدينة « حمص » حيث حدثت المعركة .

وقد وقعت أحداث هذه المعركة سنة ٣٥٧ للهجرة أي ٩٦٨ للميلاد ، عندما حاول أبو فراس أن ينصّب نفسه سيداً على حمص بعد موت ابن عمه سيف الدولة . إذ أرسل أبو المعالي ابن عم سيف الدولة قواته — بمساعدة قائده التركي قرعويه — إلى أبي فراس وحاربته وغلبته ، بعد أن خانه رجاله في مقابل المال الذي دفعه لهم قرعويه .

وكان أبو فراس معروفاً كأشجع شاعر ومحارب عربي كذلك . وكان يدعى فارس بني حمدان ، وقد أسره البيزنطيون سنة ٣٤٨ هـ أي سنة ٩٥٩ م ، وفر من الأسر وأصبحت قصة فراره من أسره في الخرشنة ، على نهر الفرات ، قصة أسطورية . ثم أسره الرومان مرة ثانية سنة ٣٥١ هـ أي ٩٦٢ ، وأرسلوه إلى القسطنطينية ، حيث ظل سجيناً لعدة سنوات[1] ، وكتب الكثير من مقطوعاته الشعرية الجميلة ، ومراثيه المعبرة في داخل سجنه . لقد قاسى مرارة الأسر خاصة بالنسبة لفارس محارب شجاع ، وابن بار ، وزوج مخلص ، وأب محب عطوف . وأبياته الأخيرة الرقيقة التي خاطب بها ابنته « فوز » ، مشهورة حيث يقول :

---

(١) لم يتفق الكتّاب فيما إذا كان أبو فراس قد أسر مرة أو مرتين . انظر الثعالبي وديوان أبي فراس .

أبنيّتي لا تجزعي كل الأنام إلى ذهاب
نوحي على بحرقـة ما بين سترك والحجاب
قولي إذا ناديتني وعجزتُ عن رد الجواب
زين الشباب أبو فراسٍ لم يمتّـع بالشباب

واضح أن أبا فراس كان يعاني من مرارة الأسر ، وقسوة البشر . والشوق إلى أسرته وأهله ، مما أنطق لسانه بما يعتصر في قلبه ، في لغة سهلة معبرة مؤثرة . وليس غريباً أن يتأثر بهذا كله شاعر رقيق متأثر هو الآخر كنسيب عريضة . أثرت فيه حياة أبي فراس القصيرة ، وأثرت فيه النهاية الحزينة للشاعر العربي المشهور والفارس الشجاع المناضل . ومن الواضح أن نسيباً أخذ يتخيل المنظر الأخير من المعركة التي سقط فيها أبو فراس قتيلا ، فجاءت مقطوعته الشعرية التي بعنوان « احتضار أبي فراس » . تصف هذا المنظر الوحيد الذي أثر فيه كثيراً .

تدور المعركة — كما وصفها نسيب — في أرض صحراوية ساخنة لا يُرى فيها إلا السراب من بعيد . يرقد أبو فراس تحت شجرة منفردة ، تثخنه جراح مميتة وتضرِّج جسده الدماء . وهو يبدو غائباً عن وعيه غير قادر على الإحساس بجراحه . خاصة ذلك الجرح الذي سببه الرمح الأخير حين نفذ من صدره بعد طعنه من الخلف . وخشبة الرمح ملقاة بجانبه على الأرض وهو يهذي في لحظة احتضاره .

نسمع أبا فراس وهو يهذي متصوراً نفسه ذلك المحارب الجسور الذي قاد جيشه إلى النصر . إنه يصرخ :

الطبول ، الطبول .. إنّا انتصرنا ! فأريحوا قناً براها الطعان
صحَّ حلمي وعاد لي أمر قومي ولي الصولجان(١) .. والسلطان

ثم يخاطب رجاله قائلا :

قد ظفرنا ... دقو الطبول وسيروا موكباً ناظراً إليه الزمانُ
موكب المقسمين أن يأخذوا الحق بحدّ السيوف أو يتفانوا

وبينما هو فى هذه الحالة الحالمة يرى مجموعة من الحسان أتين ليحتفلن بالنصر ويطلب منهن أن يتوجن المحاربين بأكاليل المحبة والزهور . وهو فى غيبوبته ووهمه ، يخلط بين سهم المعركة وسهم الحب . إنه يشعر فقط بالوخز المؤلم فى قلبه والنار المحرقة فى كيانه .

وتسطع الشمس فوق أرض المعركة ويلسع لهيبها الفارس المحتضر ، فيتململ بغير شعور ويغمغم بكلمات الحب والحنان لمحبوبته ، سائلا إياها أن تعانقه وتقبله ، وعندما تفعل ذلك يشعر بقبلاتها وكأنها النار المحرقة وفيها طعم الموت ، فيطلب إليها أن تبتعد عنه . وفجأة يفتح عينيه ويعود إلى رشده فيتخيل إليه أنه كان يحلم :

أنا وحدى.. ترى أهذا منام ؟ آه لا ! ... إن ما أراه العيانُ
ههنا .. ههنا لقد قبلتنى ... ههنا الصولجان ... لا بل سنانُ

وتتجلى له الحقيقة القاسية فيحاول النهوض ولكنه لا يستطيع . فيمدّ ذراعه مدًّا بطيئاً ويحاول أن يمسك السنان النافذ من صدره . وعندما يغلبه الألم الحاد ، ويشمله شعور بالخيبة والحزن نراه يستسلم لمأساته ، ولكن فى تحدٍّ واعتداد :

نافذ فى الحشا، لقد أحكم المرمى عدوى وخاننى الأفـرانُ
طعنة لو تجيئنى من أمامى لهوى من مهابتى الطعّـان

ويتحقق — بصورة أوضح — من حقيقة الهزيمة المؤلمة فيقرر :

قد دُحرنا ... وفرّ صحبى وزال الحلم عنى وُهدّت الأركان
ويل حلم صدقته فإذا بالتـا ج يهوى وتبرز الأكفان
خاب ظنّى.. تعال ياموت أسرعْ لست أرضى الحياة فيها الهوان

وبينما يحكى نسيب عريضه موت الفارس الحمدانى يتذكر أبياتاً له ، وخاصة تلك التى خاطب فيها الحمامة وهو فى أسره ، فيستفيد من هذه الأبيات ويجعل المنظر التالى لأبى فراس الذى كان فى غيبوبة يستيقظ منها على صوت

حمامة تنوح من فوق شجرة ، يستمع إليها ثم يلقى أبياته المذكورة :

« أقول وقد ناحت بقربى حمامة أياجارتا ، هل تشعرين بحالى »
« معاذ الهوى! لاذقتِ طارقة النوى ولا خطرتْ منك الهموم ببال »

وعندما يأتى أبو فراس إلى آخر أبياته المعروفة يتوقف هديل الحمامة ، وتفرّ مذعورة لأنها رأت نسراً قادماً فى الجو ، ويحوم النسر حول جسد أبى فراس ولكنه يحجم عنه إذ يراه يختلج فيقر فى الجو صائحاً ، وعندها يستمع أبو فراس ويخاطب النسر بنغمة حزينة رقيقة ، يطلب إليه أن يتذرع بالصبر برغم مابه من جوع ، وأن ينتظر اللحظة المناسبة لينقض عليه . ويقدم الشاعر جسده بكرم إلى الطائر سائلا إياه أن يمزقه تمزيقاً دون رحمة ، والسبب عنده :

لقد مزقته الناس قبلك : إخوتى وأبناء عمى والعدوّ المكشِّرُ

ثم تأخذ نسيباً الرحمة بقلب أبى فراس فيجعله يخاطب الطير قائلا :

وأطلقَ فؤاداً ذاب فى أسر أضلعى عليه سلام الله كم كان يصبرُ

ويشعر أبو فراس بوخز الألم الذى يسببه الجرح الغائر فى أضلعه ، ويتخيّل ملاك الموت آتياً نحوه ، فيضطرب الشاعر ويقدم له روحه المعذبة التى يعرف أنها وديعة يجب أن ترد إلى خالقها . ويتحدث عن روحه بشعور وإحساس صادق ، فلقد كانت روحاً تعيسة ؛ محبوسة ومستعبدة للجسد . ومع هذا فهو يطلب منها أن تؤخر رحيلها . ويأمل من ملاك الموت أن يتركها بصحبته فترة قبل انفصالها عنه . وبألم متزايد وحزن عظيم يتذكّر مآسى حياته ؛ والأهداف التى لم تتحقق ، والآمال الخادعة ، والمحاربين الذين فروا وتركوه يواجه مصيره وحده .

وبمعرفة كل هذه الحقائق نجد أبا فراس لا يريد امتداد بقائه فى هذه الحياة ، فيطلب من ملاك الموت أن يسرع ولا يظهر أية رحمة ، فإن الموت حق :

إن أعرضتْ عنى الحياة فإنّ لى فى الموت حقًّا ٥

وبمغيب هذه الرؤيا ، تتجه أفكار أبي فراس إلى عائلته . إنه يتخيل ابنته عندما تصلها أخبار موته ، ويمتلىء قلبه بالأسى عندما يتخيلها تصرخ وتبكي وتمزق ثيابها من الحزن . وهنا يضمّن نسيب قصيدته الأبيات المشهورة التي خاطب فيها أبو فراس ابنته ، والتي أثبتناها في صفحة سابقة .

ويخيم ظلام الموت على الشاعر الصريع فيناجي ملاك الموت سائلا إياه أن يأخذ روحه ويحررها من أسر رفات الجسد البائد . ويؤكد عريضة من جديد أن الشاعر كان في أسر دائم دون أن يدرك ذلك ، والآن وقد حان وقت الانفلات آن له أن يصرّح ببيتيه الأخيرين :

إني أرى نور الخلود يضيء في كل الجهات
فاطفئ سراجي واسدلِ الستر الأخير على حياتي

يرى بعض النقاد أن «قصيدة على طريق إرم» وقصيدة «احتضار أبي فراس» تعالجان موضوعاً واحداً بطريقتين مختلفتين « إحداهما معنية بالمسافة بين المولد والقبر ، والأخرى هي التي تلقى الموت وجهاً لوجه »[1] وبدراسة شعر نسيب نلاحظ أنه متصل تمام الاتصال بتطورات أحواله النفسية . إنه شاعر يسجل الدوافع النفسية . وليس من الصعب أن نجد السبب في اختيار نسيب للشاعر أبي فراس كبطل لقصيدته التمثيلية والتأمل في ذلك المنظر الأخير لحياة الشاعر الحمداني .

ويكاد المرء يشعر أن هناك صلة قوية بين الشاعرين السوريين ؛ فكلاهما كان شاعراً ذا كرامة ، وكلاهما كان كريماً وشريفاً ومخلصاً . كان أبو فراس ممتلئاً بالأمل والطموح في أن يحكم بلاده في المستقبل ويدافع عنها ويحمي مجدها . ولم يكن نسيب أقل طموحاً في مجاله الخاص . كان رأسه مليئاً بالأفكار التي تطلّع إلى تطبيقها في حياته الأدبية .

ولسوء الحظ ، فإن حالة كلا الشاعرين متشابهة في نهايتها . كلاهما

---

(١) إحسان عباس ومحمد نجم : الشعر العربي في المهجر ص ٢٠٩ .

خانه أصدقاؤه وخدعته وعود الرفقاء ؛ الأول فى عالم السيف والثانى فى عالم القلم .

هذه الحالة المريرة من الخيبة والفشل مشروحة شرحاً وافياً فى رسالة من نسيب إلى أخيه سابا الذى كان فى ديترويت سنة ١٩١٨ ، وكان ينوى تأسيس صحيفة عربية بمعونة أحد أصدقائه . فنصحه نسيب بألا يبدأ مثل هذا العمل فى ذلك الوقت بالذات بسبب الحرب وما خلفته من مصاعب وآلام . هذا إلى جانب ما عانته مجلة الفنون من مآزق مالية . ونجده وقد غلبه الشك والتشاؤم فأخذ يسأل أخاه : ما إذا كان قد أعطى المسألة تفكيراً كافياً ، وما إذا كان قد فكر فى الفشل ، وأن فشل الإنسان فى أول أعماله قد يترك أثراً فى حياته كلها فيما بعد . بل إنه يتنبأ بأن كل الصحف العربية ستختفى من نيويورك مع نهاية العام . وفى آخر رسالته نجده يحذر أخاه من الناس ووعودهم إذ كثيراً ما يخذلون الإنسان عندما تشتد حاجته إليهم .

لقد حاولتُ أن أؤكد وجود التشابه بين نسيب عريضه والشاعر العربى الفارس المخذوع « أبى فراس الحمدانى » لقد كانت لديه آمال لبلاده ، وقد حارب من أجلها بشجاعة ، واعتبر نفسه جديراً بأن يخلف ابن عمه سيف الدولة فى حكم البلاد . كان مخلصاً لأصدقائه وفيًّا لابن عمه . فلا عجب أن يشعر بالمرارة والخيبة حينما وجد نفسه وحيداً فى سجنه فى القسطنطينية لمدة أربع سنوات . ومن هناك كان يرسل إلى سيف الدولة أرق أشعاره التى تكون جزءاً كبيراً من ديوانه . إنه يعبر فيها عن شكواه بصدق أخاذ وبساطة جميلة مما لم يكن معروفاً فى الأدب العربى من قبل . وربما لم يعبر شاعر عن نفسه بعده بهذه الصورة ، حتى جاء نسيب عريضة وواجه ذلك النوع من الحياة الذى امتزج بموهبته كشاعر ، فأخذ يزفر بتأوهات العصر ونغمات الخيبة ، وألم الفشل الذى يتميز به القرن العشرون .

وأكثر من هذا فإن نسيب عريضة كانت له قابلية خاصة لتصوير

الأشخاص والأشياء المتعلقة بمدينته حمص ، وأبو فراس كان قد فكر فى حمص كعاصمة جديدة للدولة الحمدانية ، يستطيع منها أن يتقدم ليحكم جهات أخرى من سوريا ، بعد موت سيف الدولة ، ولكن آماله لم تتحقق اذ قتل بعد ذلك بوقت قصير .

وكان شوق نسيب لمدينته صادقاً وحنينه إليها جارفاً . كذلك كان حنين أبى فراس إلى مدينته الأصلية حلب ، إذ تربى فيها وكان يسكن فيها وصيه وابن عمه سيف الدولة . وشعر الحنين فى ديوان أبى فراس ليس أقل تعبيراً وصدقاً من شعر الحنين فى الأرواح الحائرة ، وتلك القصائد المعروفة باسم « روميات أبى فراس » تعطينا مثلا جيداً لمعاناته وفروسيته .

ولا يستطيع أحد أن يرتاب فى إخلاص نسيب وصدق مشاعره فى جميع تعبيراته ، وكذلك كان أبو فراس من أرق الشعراء وأصدقهم تعبيراً فى عصره . فكان من الطبيعى أن يعجب نسيب عريضة بحياة أبى فراس وأشعاره عندما اطلع عليها فى القسم العربى من مكتبة نيويورك العمومية ، أو عندما تذكر ما تعلمه من شعره فى مدرسة الناصرة الروسية ، مما أوحى له بهذه القصيدة الحزينة التى عرضنا لها .

أما عن تناول نسيب لمأساة أبى فراس فى شعره فنلحظ فيه شيئاً من التوازن فى التعبير ، إذ تبدأ القصيدة بأغنية مؤثرة من تسعة أبيات تعبر كلماتها وقافيتها ووزنها عن مشاعر الغبطة والسرور بالنصر المتوقع الذى تخيله أبو فراس ، وهذا ظاهر فى تكرار كلمة الطبول فى البيت الأول ، كذلك فى استعمال كلمات قوية من مثل « الصولجان » و « السلطان » .

ويستمر عريضة فى نفس الوزن والقافية حتى يأتى إلى المقطع الذى يستعيد فيه أبو فراس أبياته فى مناجاة الحمامة . ثم تأتى الأبيات التى يخاطب فيها الشاعر الطائر الجارح الذى أتى لوليمة رفاته ، فنسمع أنّات الحزن ونغمات

اليأس ممزوجة بالصبر والشفقة على نفسه ، وهنا تنعكس الأفكار والمشاعر فى الوزن المختار والكلمات المنتقاة التى قد تكون آخر ما يقال . وبنفس النغمة يتحدث الشاعر إلى ملاك الموت. والمقطوعة الأخيرة رقيقة مؤثرة بهدوئها الذى اختتم به الشاعر قصيدته ، وأسدل ستاراً على حياة الفارس العربى .

٧

الشكل والأسلوب

كتب ميخائيل نعيمة فى « مجموعة الرابطة القلمية » :

« إن الرابطة القلمية ما كانت لتقدم هذه المجموعة إلى قرّاء العربية لولا اعتقادها بأنها قد اتخذت من الأدب رسولا ، لا معرضاً للأزياء اللغوية والبهرجة العروضية » .

يتضح من كلمات نعيمة أن شعراء الرابطة وكتابها كانوا يمثلون ثورة تجاه الآراء السائدة . سواء فى المجتمع أو فى التعبير الأدبى كما عرفه مَنْ قبلهم . لقد حاولوا التخلص من الأشكال والأزياء المألوفة ، واكتشاف موضوعات طازجة وأشكال حديثة تخصهم وحدهم ، وحتى فى استخدام الكلمات ، حاولوا أن يبتعدوا عما تكرر عبر القرون ، وأن يطوعوا اللغة لمشاعرهم وتعبيراتهم الخاصة .

لقد أعطوا قدراً للمحتوى والموضوعات أكثر من اهتمامهم بالشكل ؛ فالشىء نفسه أهم عندهم من الطريقة التى يقال بها . وكان أكثر شعرهم من النوع العاطفى ، احتلت المشاعر العميقة جزءاً كبيراً من كتاباتهم برغم كونها ذات تفكير مركز وجاد فى أحيان كثيرة . .

ولم يشذ عن هذا كله نسيب عريضة ، بل على العكس : فهو كرجل قرأ الأدب العربى منذ العصر الجاهلى إلى وقته الحاضر قد أعجب بالكثير مما قرأ من شعر ونثر . وكانت الموضوعات التى تتعلق بمجد العرب من أحب الموضوعات إلى نفسه ومنها فروسية أبى فراس الحمدانى وقصة حب ديك الجن الحمصى ، وصوفية ابن الفارض التى كانت قريبة من طبيعة نسيب ، وكذلك

كل المعارك الحاسمة خلال تاريخ العرب ، كما رواها السيف المشهور باسم « الصمصامة » .

وقد روى نسيب الكثير من تلك الموضوعات بصورة مؤثرة صادقة التعبير . ويزداد اهتمام القارئ بالطريقة الفنية التى اختار بها نسيب تفاصيل الأحداث ، وبمقدرته الشعرية التى ساعدت على انتخاب الكلمات المناسبة للمعانى وتنوع الأوزان لتوافق الأفعال .

وبرغم وجود نسيب فى فترة الانتقال — كما يمكن أن نسميها — التى اجتاحت كتاب وشعراء الرابطة فيها تلك الثورة على الأحكام المفروضة على الشعر من قبل الأقدمين ، فإن القارئ يقابل العديد من القصائد فى ديوان « الأرواح الحائرة » حيث الشكل الشعرى تقليدى صرف ومع هذا فإن تلك القصائد تعتبر من أحسن أشعاره وأكثرها شيوعاً . فقصيدة الشاعر التى أهداها إلى جبران يوم نشر كتابه « دمعة وابتسامة » وقصيدته إلى جبران التى أنشدها فى العيد الفضى لصديقه فى الخامس من يناير سنة ١٩٢٩ ، نجده يتمسك فيهما بالأحكام الكلاسيكية والقافية المعروفة . كذلك فى قصيدته الثالثة لصديقه التى أنشدها يوم الاحتفال بمرور أربعين يوماً على وفاته ، وأهداها إلى روح جبران وجعلها بعنوان « عم صباحاً » ثم قصيدته « دعنى وشأنى » وفى « جلسة طرب » التى تحدث فيها عن نفسه وعن تأملاته فى الحياة والناس . كذلك فعل فى القصائد الثلاث المؤثرة التى رثى فيها شقيقه سابا وخاصة تلك التى سماها « ذكرى الغريب » ثم قصيدته الإنسانية النبيلة « على قبر غاوية » التى تعكس تعاطف نسيب العميق مع المرأة ، التى اعتبرها ضحية أكثر منها مذنبة وهى نظرة اجتماعية جديدة ومفاجئة من شاعر عربى أخلاقى ، كل تلك القصائد مارس فيها نسيب الطريقة التقليدية فى نظم الشعر ، خاصة الأخيرة التى يستخدم فيها بحر « الطويل » الذى يعد من أكثر الأوزان شيوعاً وقدماً ، وقد نظم نسيب أيضاً فى بحور : البسيط والخفيف والسريع والوافر .

ومع أنّ نسيباً قد اتبع الأحكام التقليدية فى بعض قصائده الممتازة ، إلا أنه أظهر نفسه فى أوقات أخرى كشاعر مجدد ، ومجرب ، سواء فى الوزن والقافية أو فى اختيار الكلمات البسيطة ، المعبرة ، الملائمة تماماً لموضوع الحديث ، وقصيدته «النهاية» تعتبر ثورة بالنسبة لأشعار عصره ؛ فهى من ناحية المعنى تعكس سخطه الشديد للامبالاة التى أظهرها مواطنوه فى سوريا وفى المهجر أمام الجوع والفساد والانحطاط الذى ساد البلاد فى فترة الحرب العالمية الأولى وبعدها . لقد استخدم أسلوباً جديداً ، إذ تتكون الأبيات الثلاثة الأولى من كل مقطوعة من تفعيلة واحدة من نفس وزن وقافية التفعيلة التى سبقتها :

كفّنوهُ
وادفنوهُ
أسكنوه

وحركة البيت تتناسب مع روح النغمة المؤثرة التى رغب الشاعر فى التعبير عنها . وعلى العموم فإن هذه القصيدة تبعد كثيراً عن القصيدة القديمة ذات الأوزان والقوافى التقليدية .

« بين العواصف والأمانى » عنوان قصيدة أخرى حاول فيها نسيب أن يبتعد عن الوزن التقليدى ، وفيها يقول :

فوق هاتيك الصخور الشاهقة قد تطلّبتُ العواصفْ
وعلى سحب الأمانى البارقه هام قلبى غير خائف

وكذلك قصيدته المسماة « قبل التكوين » :

ألا استيقظى يا أشعة نفسى ولو لدقيقـــــــهْ
وشقّى حجاب دياجير رمسى لألقى الحقيقـــــــهْ

ففىّ جمود على يثور
وشكٌّ بغير انتظام يدورْ
ودليلٌ يعمّ وليل يغور
ولجٌّ يضجّ كبدء الخليقه

ولكى يبتعد عن الرتابة ، فقد حاول نسيب أن يغير فى الأوزان بطرق شتى ، فنجده فى القطعة السابقة ، لا يوائم بين القافية فى النصف الأول من البيت وتلك التى فى النصف الثانى منه . كذلك البيت الأخير من المقطوعة لا يشبه فى قافيته الأبيات التى سبقته ولكنه يشابه الجزء الثانى من البيت الأول :

ويطوع الوزن لإرادته أكثر فى قصيدة « النعامى » حيث تختلف القافية اختلافاً واضحاً .

ومن بين التغييرات التى أحدثها نسيب استخدام « اللازمة » ، حيث ابتعد عن استعمال نفس الكلمات فى كل مرة ، بل غير المعنى واستخدم نفس الوزن والقافية ، كما فى ملحمته الصوفية المسماة « على طريق إرم » وخاصة فى المقطوعة الثانية « القلوب على الدروب » .وفى قصيدة « عودة الفارس » نجد الكلمتين اللتين تكونان اللازمة تختلفان من مقطوعة لأخرى ، وهى ميزة خاصة لهذه القصيدة :

فهى تدمعْ
ثم ودّعْ
سِرْ تشجّعْ

وكذلك الأمر فى قصيدتيه « ياليل » و « إلى نفسى » .

وتتكون قصيدة « سلة فواكه » من أربع عشرة مقطوعة ، تتألف كل منها من خمسة أبيات ، حيث تختلف القافية فى كل مقطوعة عن تلك التى سبقتها فيما عدا البيت الأخير حيث تسير القوافى معاً لتؤلف وحدة منسجمة مؤثرة . وفى قصيدة « مركب الفؤاد » توجد تسعة أبيات ، تختلف القافية فى كل منها فيتجنب الشاعر الرتابة فيها .

وكبقية شعراء الرابطة ، كان نسيب معجباً بالشعر الأندلسى بصورة عامة ، والموشحات بصورة خاصة ؛ وكتب قصيدته « النعامى » على تلك الطريقة ، كذلك فعل فى بعض قصائده الوطنية .

وشعر الرابطة القلمية عموماً قد خضع لتأثيرات الشعر الغربى والشعر الروسى وحاول أعضاؤها النظم بصور جديدة . وهكذا نهضت حركة شعرية جديدة فى الغرب ، وما لبثت أن وجدت صداها عند شعراء الشرق ، وقد وصف نعيمه ذلك بمهارة قائلا : « إن القافية العربية التى مازالت سائدة ليست إلا طوقاً حديدياً يعرقل شعراءنا وكان يجب أن يكسر منذ زمن طويل »[١] .

(١) نعيمه : الغربال ص ٧٠ .